

قطوف من السيرة المكيّة لخير البريّة ﷺ

د. جمال بن فضل الحوشبي

خرج أحاديثه وعرّف بألفاظه وأعلامه

د. محمد بن حسّان الشرعبي



تأليف:



خرج أحاديثه وعرّف بألفاظه وأعلامه

د. محمد بن حسان الشرعبي



﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾

[الأحزاب:٤٥-٤٦]

المحتويات

المقدمة

الحمد لله {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}، {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا}، والصلاة والسلام على من أرسله ربه {شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا}، أما بعد:

فإن الله جلّ وعلا قد ختم بنبينا محمداً صلى الله عليه وسلم الرسالات، وأتم به النبوات، وبعثه بين يدي الساعة، وأمر عباده بالتماس هديه، وطاعته واقتفاء أثره، فقال جلّ شأنه: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا}. (الأحزاب:٢١).

ولإظهار مكانته صلى الله عليه وسلم، وعظيم منزلته اختصه ربّه بالمزايا والعطايا التي لم يختص بها أحداً من العالمين، وأيّده بالدلائل والشمائل، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، وصحبُه خيرُ صحب على مدار التاريخ، وأنزل عليه الكتاب الخاتم، المهيمن على الكتب قبله، وجعل دينه

ناسخـًا لسائر الأديان، وسدّ كل بابٍ موصلٍ إليه إلا ما كان عن طريقه صلوات الله وسلامه عليه.

وعلى الرغم مما زخرت به المكتبة الإسلامية في السيرة العطرة، إلا أنّ الحاجة لا تزال ملحّة لتأليف مبحث لطيف في (السيرة المكيّة) لخير البريّة صلى الله عليه وسلم، يجمع بين اختيار الروايات التاريخية وعرضها بلغة أدبية، مع وقفات تحليلية تستنبط الدروس والعِبر، وذلك ما أعان عليه جلّ جلاله في هذا المختصر النافع، الذي زاد من رونقه: التعريف بتراجمه، وأماكنه الواردة، وتحرير مفرداته الغريبة، وألفاظه المبهمة؛ ليكون متنـًا مختصراً متداولاً بين أيدي الجميع.

وقد استحسن الإخوة في المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات بالرصيفة في مكة المكرمة هذا الكتاب، وقاموا بطبعه عام ١٤٣٩هـ ضمن إصداراتهم بعنوان (ورفعنا لك ذكرك).

ونظراً لتتابع الطلب على الكتاب، ولمسيس الحاجة إليه فقد رأيت إعادة طبعه، سائلاً الله تعالى أن يجعله خالصـًا لوجهه الكريم، وسببًا لرفعة الدرجات في جنّات النّعيم، وينفع به عموم المسلمين، وأن يدّخره ذخراً من

صالح العمل بعد انقطاع الأجل: لي، ولوالديّ، وذُريتي، ولأخي الدكتور محمد بن حسان الشرعبي، وكلّ من قرأه وانتفع به، إنّه سبحانه نعم المولى ونعم النصير، وهو حسبي ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمّد وآله وصحبه أجمعين.

تم الفراغ من تهذيبه وتحريره غرّة شهر شعبان ١٤٣٩هـ

وأعيد طبعه في ربيع الأول عام ١٤٤٤هـ



(1)

{أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى}

وُلِدَ أشرف خلق الله وخاتم رُسله، محمد صلى الله عليه وسلم من أسرة زاكية المعدن، نبيلة النسب، جمعت خلاصة ما في العرب من فضائل، وترفّعت عما يشينهم من أوضار؛ فهو أكرم خلق الله: محمد بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي، بن كلاب، بن مرة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النضر، بن كنانة، بن خزيمة، بن مدركة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان. وعدنان من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام بالاتفاق.

أما أمّه صلى الله عليه وسلم فهي: آمنة، بنت وهب، بن عبد مناف، بن زهرة، بن كلاب. وكلاب هو الجد الخامس للنبي صلى الله عليه وسلم من جهة أبيه، فأبوه وأمه من أصل واحد، يجتمعان في كلاب، واسمه: حكيم، وقيل: عروة، لكنّه كان كثير الصيد بالكلاب فعُرف بها. عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشـاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)[1].

---

(١) رواه مسلم (٧/ ٥٨).

ونشأ صلى الله عليه وسلم يتيمـًا، فقد مات أبوه عبد الله وأمّه حامل به لشهرين فحسب، ولما أصبح له من العمر ست سنوات ماتت أمّه آمنة؛ فذاق صلى الله عليه وسلم في صغره مرارة الحرمان من عطف الأبوين وحنانهما؛ لحكمة بالغة أراد الله تعالى بها أن يرفع ذِكره، ويُظهر أمره؛ فإنّ أباه لو كان حيـًا لنسب الناس نبوته صلى الله عليه وسلم إلى أبيه، وإذا رعته أمّه حتى يبلغ المجد لنسب الناس رعايته وتربيته إلى أمّه، ولذا قال له مُمتنًا: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى} [الضُّحى:٦]

بزغ نجمه صلى الله عليه وسلم، فُعرف عزيزاً شريفـًا منذ نعومة أظفاره.. لا مِنّة لأحد من البشر عليه، ولم يحظ بشرف رعايته إلا أفراد قلائل.. منهم حاضنته: أمّ أيمن[١]، بركة الحبشيّة[٢] رضي الله عنها وأرضاها. قال ابن

(١) أيمن بن عبيد الحبشي، ابن أم أيمن، مولاة رسول صلى الله عليه وسلم، أخو أسامة بن زيد لأمه، كان ممن بقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ولم ينهزم، استشهد يوم حنين. الاستيعاب (١/ ١٢٨).

(٢) بركة بنت ثعلبة بن عمرو أم أيمن، كنيت بابنها أيمن بن عُبيد، وهي أم أسامة بن زيد، تزوجها زيد بن حارثة بعد عبيد الحبشي، فولدت له أسامة. مولاة رسول صلى الله عليه وسلم، وخادم رسول صلى الله عليه وسلم، هاجرت الهجرتين إلى الحبشة وإلى المدينة، كان رسول صلى الله عليه وسلم يقول: أم أيمن أمي بعد أمي، وكان يزورها في بيتها، بكت لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقيل لها: ما يبكيك على رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت: إني علمت أن النبي صلى الله عليه وسلم سيموت، ولكن أبكي على الوحي الذي رفع عنا. أسد الغابة (٦/ ٣٠٣).

شهاب: وكان من شأن أمّ أيمن أمّ أسامة[1] بن زيد[2] أنها كانت وصيفة[3] لعبد الله بن عبد المطلب، وكانت من الحبشة، فلما ولدت آمنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما توفي أبوه، فكانت أم أيمن تحضنه حتى كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقها، ثم أنكحها زيد بن حارثة، ثم توفيت بعد ما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة أشهر[4].

كفله بعد ذلك جدّه عبد المطلب، وكان أحنى الناس عليه، وأحبّ النّاس إليه. غير أنّ الموت لم يُمهله طويلاً، حيث توفي ورسول الله صلى الله عليه

---

(١) أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي، أمه أم أيمن حاضنة النبي صلى الله عليه وسلم، فهو وأيمن أخوان لأم. يكنى: أبا محمد، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبويه، وكان يسمى: حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، استعمله النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثماني عشرة سنة، توفي آخر أيام معاوية سنة ثمان أو تسع وخمسين، وقيل: سنة أربع وخمسين. أسد الغابة (١/ ٧٩).

(٢) زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، أبو أسامة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أصابه سباء في الجاهلية، فاشتراه حكيم بن حزام رضي الله عنه لعمته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فوهبته خديجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتبناه رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل النبوة، وهو ابن ثمان سنين، زوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم مولاته أم أيمن، فولدت له أسامة بن زيد، وكان يقال له: حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قتل بمؤتة من أرض الشام سنة ثمان من الهجرة، وكان الأمير على تلك الغزوة. الاستيعاب (٢/ ٥٤٢).

(٣) أي: أمة. لسان العرب (٩/ ٣٥٧).

(٤) رواه مسلم (١٧٧١).

وسلم ابن ثمان سنوات. وبفقده ذاق الغلام المصطفى ألم اليُتم، ولوعة الفراق! عن سعيد بن حيوة[1] قال: حججت في الجاهلية فإذا أنا برجل، يطوف بالبيت وهو يرتجز ويقول:

رَبِّ رُدَّ إِلَيَّ رَاكِبِي مُحَمَّدًا... رُدَّهُ إِلَيَّ وَاصْطَنِعْ عِنْدِي يَدَا

فقلت: من هذا؟ فقالوا: عبد المطلب بن هاشم بعث بابن ابنه محمد في طلب إبل له، ولم يبعثه في حاجة، إلا أنجح فيها[2]، وقد أبطأ عليه، فلم يلبث أن جاء محمد والإبل، فاعتنقه، وقال: يا بني لقد جزعت عليك جزعًا لم أجْزَعْهُ على شيء قط، والله لا أبعثك في حاجة أبدًا، ولا تفارقني بعد هذا أبدًا[3].

كان جدّه يرى فيه النجابة من صغره، وتلوح على محياه مخايل الذكاء الذي يحبّبه إلى كل من رآه؛ ولذا بلغ صلى الله عليه وسلم منه منزلاً لم يبلغه أحد

---

(١) سعيد بن حيوة بن قيس الباهلي، معدود في أهل البصرة أدرك الجاهلية، له حديث واحد ليس يعرف إلا به، قصة عبد المطلب إذ فقد النبي صلى الله عليه وسلم، وهو صغير، وكان بعثه في طلب إبل له، فأبطأ عليه.

(٢) أنجح، إذا أصاب طلبته. النهاية، مادة: (نجح).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك، وصححه ووافقه الذهبي.

من بنيه. قال محمد بن إسحاق بن يسار: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جده عبد المطلب. فحدثني العباس بن عبد الله بن معبد، عن بعض أهله قال: كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي حتى يجلس عليه، فيذهب أعمامه يؤخرونه، فيقول جده عبد المطلب: دعوا ابني. فيمسح على ظهره ويقول: إن لِبُنَيَّ هذا لشأنًا[1].

عاد المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى كنف اليُتم مُجدداً، غير أنّ اليُتم في حقّه لم يكن مضيعة، بل قربى وأيّ قُربى! فلإن مات والده، وأمّه، وجدّه صلى الله عليه وسلم فإنّ ربّه حيّ لا يموت.. ما ودّعه، ولا قلاه، بل رعاه وحماه، وقرّبه واصطفاه. وكيف ينساه، وهو الذي نقّله في أرحام الطُّهر جيلاً فجيلاً، وبشّر به المرسلين، وجعل اسمه فَخاراً على ألسنة المؤمنين؟!وها هو يحفظه من دَرَنِ الأدناس، ومن شرّ الجنّة والنّاس، ويرفعه عن كل عيب، ويمنحه كل خُلق جميل، ويُغدِق عليه من فيض الرحمة والحنو، ما لم يذقه غلامٌ في مثل سنّه.

---

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة (١/ ٦٦)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٢) وسنده حسن.

وسريعـًا ما حظي عمّه أبو طالب بشرف رعايته. عن ابن عباس رضي الله عنهما [1] قال: لما توفي عبد المطلب قبض أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه، فكان يكون معه، وكان أبو طالب لا مال له، وكان يحبه حبًا شديدًا لا يحبه ولده، وكان لا ينام إلا إلى جنبه، ويخرج فيخرج معه، وكان يخصه بالطعام، وكان إذا أكل عيال أبي طالب جميعًا أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شبعوا، فكان إذا أراد أن يغذيهم قال: كما أنتم حتى يحضر ابني، فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل معهم[2].



---

(١) عبد الله بن العباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي. يكنى أبا العباس، ولد في الشعب قبل خروج بني هاشم منه، قبل الهجرة بثلاث سنين، وكان ابن ثلاث عشرة سنة إذ توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال رضي الله عنه: ضمني النبي صلى الله عليه وسلم إلى صدره، وقال: (اللهم علمه الحكمة)، وفي رواية: (علمه الكتاب)، قال البخاري: والحكمة: الإصابة في غير النبوة. مات بالطائف سنة ثمان وستين. الاستيعاب (١/ ٢٨٤).

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات (١/ ٦٦).

(2)

" انظروا حيث تسرح غنم بنت أبي ذؤيب"

أخذت الأمّ الحانية (آمنة) تترقب المراضع المقبلات من البوادي، فقد كانت هذه عادة أهل الحاضرة: أن يبعثوا بأولادهم إلى البادية، ليمرحوا في كنف الطبيعة، ويستمتعوا بجوّها الطَّلْق، وأشعتها المُرسلة. وقد شرُف بإرضاعه صلى الله عليه وسلم بعد ولادته: ثويبة[1]، مولاة أبي لهب. عن أم

(١) أول من أرضع رسول الله صلى الله عليه وسلم بلبن ابن لها يقال له: مسروح أيامًا قبل أن تقدم حليمة، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي، ذكرها ابن مندة، وقال: اختلف في إسلامها. وقال أبو نعيم: لا أعلم أحدًا أثبت إسلامها. الطبقات لابن سعد (١/ ٨٧)، الإصابة (٨/ ٦٠).

حبيبة[1] رضي الله عنها، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أرضعتني وأبا سلمة[2]: ثويبة)[3].

إلا أنّ الحظوة في إرضاع خاتم المرسلين كانت لحليمة السّعديّة[4]، بنت أبي ذؤيب؛ حيث أقبلت مع صويحباتها في ذلك الموسم ابتغاء العودة برضيع

---

(١) رملة بنت أبي سفيان القرشية الأموية أم المؤمنين، اسلمت قديمًا بمكة، وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش، فتنصر بالحبشة. ومات بها، وأبت أن تتنصر، وثبتت على إسلامها، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي بالحبشة، وتولى عثمان بن عفان رضي الله عنه تزويجها له، وأمهرها النجاشي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار. توفيت رضي الله عنها سنة أربع وأربعين.

(٢) أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال القرشي المخزومي، زوج أم سلمة قبل النبي صلى الله عليه وسلم، أمه برة بنت عبد المطلب، فهو ابن عمة النبي صلى الله عليه وسلم، كان أخا رسول الله صلى الله عليه وسلم، واخا حمزة من الرضاعة، أرضعته ثويبة مولاة أبي لهب، أرضعت حمزة ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أبا سلمة، كان قديم الإسلام، أسلم بعد عشرة أنفس، هاجر بامرأته أم سلمة إلى أرض الحبشة، ثم شهد بدرًا بعد أن هاجر الهجرتين، وجرح يوم أحد جرحًا اندمل، ثم انتقض فمات منه، وذلك لثلاث مضين لجمادى الآخرة سنة ثلاث من الهجرة. الاستيعاب (٣/ ٩٣٩).

(٣) رواه البخاري (٥١٠١)، ومسلم (١٤٤٩).

(٤) حليمة بنت أبي ذؤيب وأبو ذؤيب هو عبد الله بن الحارث، أم النبي صلى الله عليه وسلم من الرضاعة، أرضعت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أكملت رضاعه، ورأت له برهانـًا وعلمـًا جليلاً، جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين، فقام إليها وبسط لها رداءه فجلست عليه. الاستيعاب (٢/ ٨٥).

تستعين على العيش بحضانته؛ فالمرضعات إنّما يقصدن مكة طالبات للرزق واليَسار بتربية أولاد الأشراف، ولذا زهدن في اليتيم (محمّد) صلى الله عليه وسلم، وتطلّعن إلى غيره، ولم يبق لحليمة رضيع سواه، واستحيَت أن تعود صفر اليدين، فرجعت إلى أمّه لتأخذه منها. وبأخذه حلّت عليهم البركة، وأخصب العيش بعد القحط، ودرّت الضروع بعد الجفاف.

قالت حليمة السعدية رضي الله عنها تصف ما نزل بهم من البركة لحظة أخذ محمد صلى الله عليه وسلم: قدمتُ مكة في نسوة من بني سعد بن بكر[1]، نلتمس بها الرضعاء، وفي سنة شهباء[2]، فقدمت على أتان لي قمراء[3] كانت أذمت بالركب[4]، ومعي صبي[5] لنا، وشارف[6] لنا، والله ما ننام ليلنا ذلك أجمع مع صبينا ذاك، ما نجد في ثديي ما يغنيه، ولا في شارفنا ما يغذيه،

---

(١) سعد بن بكر (قبيلة)، بطن من هوازن العدنانية، وهم حضنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا زالوا في منازلهم القديمة في (قرن المنازل)، وجنوب الطائف في (بسل)، و (مظللة). المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص١٤٠).

(٢) أي: ذات قحط وجدب. النهاية، مادة: (شهب).

(٣) الأتان: أنثى الحمار، وقمراء: بيضاء.

(٤) أي: حبستهم لضعفها وانقطاع سيرها. النهاية، مادة: (ذمم).

(٥) الصبيُّ: الغلامُ والجمع صِبْيَة وصِبْيانٌ. لسان مادة: (صبا).

(٦) الناقة المسنة. النهاية، مادة: (شرف).

فقدمنا مكة، فو الله ما علمتُ منّا امرأةً إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا قيل: إنه يتيم، تركناه، وقلنا: ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه، إنما نرجو المعروف من أبي الوليد، فأمّا أمّه فما عسى أن تصنع إلينا؟ فو الله ما بقي من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعـًا غيري، فلما لم أجد غيره، قلت لزوجي الحارث بن عبد العزى[1]: والله إني أكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع، لأنطَلِقَنّ إلى ذلك اليتيم فلآخُذَنّه، قال: لا عليك، فذهبتُ، فأخذتُه، فو الله ما أخذته إلا أني لم أجد غيره. فما هو إلا أن أخذته، فجئت به رحلي، فأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب أخوه حتى روي، وقام صاحبي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل[2]، فحلب ما شرب وشربت حتى روينا، فبتنا بخير ليلة، فقال صاحبي: يا حليمة، والله إني لأراك قد أخذتِ نسمة مباركة، ألم تري إلى ما بتنا به الليلة من الخير حين أخذناه؟! فلم يزل الله يزيدنا خيراً، حتى خرجنا راجعين إلى بلادنا، فو الله لقطَعت أتاني بالركب حتى ما يتعلّق بها حمار،

---

(١) الحارث بن عبد العزى بن رفاعة.. بن سعد بن بكر بن هوازن، أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاعة، أسلم، وحسن إسلامه. أسد الغابة (١/ ٤٠٤).

(٢) أي: كثيرة اللبن. النهاية، مادة: (حفل).

حتى أن صواحبي ليقلن: ويلك، يا بنت أبي ذؤيب، أهذه أتانُك التي خرجت عليها معنا؟ فأقول: نعم، والله إنها لهي، فيقلن: والله إن لها لشأنـًا، حتى قدمنا أرض بني سعد، وما أعلم أرضـًا من أرض الله عز وجل أجدب منها، فإن كانت غنمي لتسرح ثم تروح شباعـًا، لبنـًا، فنحلب ما شئنا، وما حولنا أحد تبض له شاة بقطرة لبن[1]، وإن أغنامهم لتروح جياعـًا، حتى أنهم ليقولون لرعيانهم ويحكم انظروا حيث تسرح غنم بنت أبي ذؤيب، فاسرحوا معهم، فيسرحون مع غنمي حيث تسرح، فيريحون أغنامهم جياعـًا وما فيها قطرة لبن، وتروح غنمي شباعـًا، لبنـًا، نحلب ما شئنا، فلم يزل الله عز وجل يرينا البركة، ونتعرفها حتى بلغ سنتيه، وكان يشب شبابـًا لا يشبه الغلمان، فو الله ما بلغ سنتيه حتى كان غلاما جفراً[2]، فقدمنا به على أمه، ونحن أضنّ شيء به[3] مما رأينا فيه من البركة[4].

(١) أي: ما يقطر منها لبن. النهاية، مادة: (بضض).

(٢) قوي على الأكل. النهاية، مادة: (جفر).

(٣) أي: بخلا به وشحًا أن يشاركنا فيه غيرنا. النهاية، مادة: (ضنن).

(٤) رواه ابن إسحاق في السيرة (١/ ٤٩-٥٠).

غير أنّ حَدَثـًا مهولاً جرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم في بادية بني سعد كان السبب في عودته إلى كنف أمّه الحنون مجدداً. عن أنس بن مالك[1] رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشقّ عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَه[2]، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ـ يعني ظئره[3] ـ فقالوا: إن محمداً قد قُتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره صلى الله عليه وسلم[4].



---

(١) أنس بن مالك بن النضر أبو حمزة الأنصاري الخزرجي، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، واحد المكثرين من الرواية عنه، أمه أم سليم أتت به النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: هذا أنس غلام يخدمك، فقبّله وكناه أبا حمزة، دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بكثرة المال والولد، اختلف في وقت وفاته، وأكثر ما قيل في وفاته سنة (٩٣)، وله مائة سنة وثلاث سنين. أسد الغابة (١/ ٢٩٤).

(٢) أعاده في مكانه. فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن رجب (٢/ ٣١٢).

(٣) الظئر: المرضعة غير ولدها. النهاية، مادة: (ظأر).

(٤) رواه مسلم، (١/ ١٤٧).

(3)

" لو دُعيتُ به في الإسلام لأجَبَتُ"

أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على حياة الكدح بعد أن كفله عمه أبو طالب، وأخذ في طلب الرزق والأكل من عمل يده، وهو في سنّ مبكرة جداً، حيث اختار الله تعالى له مهنة النبيين قبله، فاشتغل صدر حياته برعي الغنم، وقال صلى الله عليه وسلم: (كنت أرعاها على قراريط[1] لأهل مكة)[2].

ولم يغب عن خاطر الغلام المكيّ وناظره شرف مكّة والبيت العتيق؛ فقد نشأ في شعابها، وارتضت نفسه سكون جلالها، وبهيّ جمالها، ودارت في ريعان شبابه أحداثٌ نقشت آثارها في صفحة قلبه البيضاء الطاهرة، ومنها ما كان من حرب الفجار وحلف الفضول.

في العشرين من عمر محمد صلى الله عليه وسلم احتدمت حرب ضروس بين قريش وقَيْس عَيْلان[3]، وقد حضر صلى الله عليه وسلم هذه الحرب،

---

(١) القيراط: جزء من أجزاء الدينار. النهاية، مادة: (قرط).

(٢) رواه البخاري (٢٢٦٢).

(٣) قيس عيلان من بطون مضر. المنتخب في ذكر نسب قبائل العرب (ص٦٧).

وكان يُجهّز النّبل لعمومته. وعلى الرّغم من انتهاء الحرب بالصلح بين الطرفين إلا أنّ ذلك الحَدَث كان عظيمـًا، ولـم تزل العرب تسير به ركبانها، وتلوّم به الطرفين، وأطلقت عليه (حرب الفجار)؛ لانتهاك الطرفين حرمة الشهر الحرام!

عَظُم على قريش انتهاك قداسة الأشهر الحرم، وهم سكّان حرم الله تعالى وأهل بيته، وسرعان ما تداركوا ذلك بحلف أثيل من أحلاف العرب المشهودة، وقع على أثر هذه الحرب، في شهر ذي القعدة، تداعت إليه قبائل قريش: بنو هاشم، وبنو المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، وأشاد به النبيّ صلى الله عليه وسلم. عن محمد، وعبد الرحمن ابني أبي بكر[1] رضي الله عنهما، قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(١) محمد بن عبد الله بن عثمان، وهو محمد بن أبي بكر الصديق، أمه أسماء بنت عميس، وولد في حجة الوداع بذي الحليفة، خرجت أمه حاجة فوضعته، كان له فضل وعبادة، وكان علي رضي الله عنه يثني عليه، مات مقتولاً بمصر. أسد الغابة (١/ ٢٨٤).

عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، شقيق عائشة، أسلم وحسن إسلامه، وصحب النبي صلى الله عليه وسلم في هدنة الحديبية، من أشجع رجال قريش وأرماهم بسهم، حضر اليمامة، فقتل سبعة من كبارهم، كان امرأً صالحـًا وكانت فيه دعابة، يقال: إنه لم يدرك النبي صلى الله عليه وسلم أربعة ولا أب وبنوه إلا أبو قحافة وابنه أبو بكر وابنه عبد الرحمن بن أبي بكر وابنه محمد بن عبد الرحمن، مات سنة (٥٣) الاستيعاب (١/ ٢٤٩).

(لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا لو دعيت به في الإسلام لأجبت)[1].

وكان قبل المبعث بعشرين سنة، في شهر ذي القعدة... وكان حلف الفضول أكرم حلف سُمع به وأشرفه في العرب، وكان أول من تكلم به، ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب[2].

لقد كان هذا الحلف يُنافي حميّة الجاهلية وعصبيتها، وبه تحالفت قبائل قريش على نُصرة المظلوم في البلد الحرام، مهما هان، والوقوف ضدّ أي ظالم مهما عزّ. ويقال في سبب هذا الحلف: أن رجلًا من زبيد[3] قدم مكة ببضاعة، واشتراها منه العاص بن وائل السهمى، فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي بني عبد الدار ومخزومًا، وجُمَحًا وسَهْمًا وعَدِيّا[4]

---

(١) رواه الحميدي، كما نقله ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٤٥٦)، وسنده صحيح.

(٢) البداية والنهاية (٣/ ٤٥٦).

(٣) مدينة مشهورة باليمن، أُحدثت في أيّام المأمون، ينسب إليها جمع كثير من العلماء. معجم البلدان (٣/ ١٣١).

(٤) بنو عبد الدار ومخزوم، وجُمَح وسَهْم وعَدِيّ بطون من قبيلة قريش (ص٤٠٠).

فلم يكترثوا له[1]، فعلا جبل أبي قُبَيْس[2]، ونادى بأشعار يصف فيها ظُلامته رافعًا صوته، فمشى في ذلك الزبير بن عبد المطلب، وقال: ما لهذا مترك؟ حتى اجتمع سادة قريش، وعقدوا الحلف ثم قاموا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه حق الزبيدي.



---

(١) أي: لم يبالوا به. انظر: النهاية، مادة: (كرث).

(٢) من أشهر جبال مكة وليس من أكبرها، تراه يشرف على الكعبة من مطلع الشمس. وأهل مكة يقولون: الواقف على أبي قبيس يرى الطائف. معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية. (ص٢٤٩).

(4)

"بشّر خديجة" رضي الله عنها

امرأة عريقة النسب، شريفة القدر، واسعة الثراء. عُرِفت بالحزم والعقل، وتطلّع سادة قريش للزواج منها، فلم تحفل بهم ولم تأبه بكثرة طلباتهم؛ للشرف العظيم الذي أخبأه الله تعالى لها. كانت خديجة[1] ابنة خويلد رضي الله عنها امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه، وكانت قريش قوماً تجاراً، فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مالها تاجراً إلى الشام، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله منها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما عاد إلى مكة حدّثها ميسرة

(١) خديجة بنت خويلد بن أسد القرشية الأسدية، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، أقامت معه صلى الله عليه وسلم أربعًا وعشرين سنة، وتوفيت وهي بنت أربع وستين سنة وستة أشهر، ولد له صلى الله عليه وسلم منها ولده كلهم حاشا إبراهيم، أول من آمن بالله ورسوله، وصدق محمدًا صلى الله عليه وسلم فيما جاء به عن ربه وآزرته على أمره، فكان لا يسمع من المشركين شيئًا يكرهه من ردٍ عليه وتكذيبٍ له إلا فرج الله عنه بها، تثبته وتصدقه، وتخفف عنه، وتُهون عليه ما يلقى من قومه. الاستيعاب (٤/ ١٨١٧).

عن أمانته وكريم شمائله. فلما أخبرها بذلك بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأثنت على شمائله، وعرضت نفسها للزواج به. ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك لأعمامه، فخرج معه منهم: حمزة بن عبد المطلب[1] حتى دخل على عمرو بن أسد[2]، فخطبها إليه فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فولدت له قبل أن ينزل عليه الوحي ولده كلهم:

(١) حمزة بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي، أبو عمارة عمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم، وأخوه من الرّضاعة. أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب، ولد قبل النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين. وقيل: بأربع. وأسلم في السنة الثانية من البعثة، ولازم نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهاجر معه، واستشهد بأحد، في النصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة، عاش دون السّتين، ولقّبه النبي صلى الله عليه وسلم أسد الله، وسماه سيّد الشهداء، ويقال: إنه قتل بأحد- قبل أن يقتل- أكثر من ثلاثين نفسًا. الإصابة (٢/ ١٠٥).

(٢) عم خديجة، هو الذي تولى نكاحها. السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص١٣٥).

زينب[1]، وأم كلثوم[2]، ورقية[3]، وفاطمة[1] والقاسم[2]، والطاهر[3]، فأما القاسم، والطاهر فماتوا قبل الإسلام، وبالقاسم كان يكنى صلى الله عليه

---

(١) زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانت أكبر بناته رضي الله عنهن، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم محبًا فيها، أسلمت وهاجرت حين أبى زوجها أبو العاص بن الربيع أن يسلم، ولدت من أبي العاص غلامًا يقال له: علي، وجارية اسمها أمامة، توفيت في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة ثمان من الهجرة، وكان سبب موتها أنها لما خرجت من مكة إلى رسول صلى الله عليه وسلم عمد لها هبار بن الأسود ورجل آخر فدفعها أحدهما فيما ذكروا، فسقطت على صخرة فأسقطت وأهراقت الدماء، فلم يزل بها مرضها ذلك حتى ماتت سنة ثمان من الهجرة، وكان زوجها محبًا فيها. الاستيعاب (٤/ ١٨٥٣).

(٢) أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانت تحت عتيبة بن أبي لهب، فلم يبن بها حتى بعث النبي صلى الله عليه وسلم، فلما بعث فارقها بأمر أبيه إياه بذلك، ثم تزوجها عثمان رضي الله عنه بعد موت أختها رقية، وكان نكاحه إياها في سنة ثلاث من الهجرة بعد موت رقية، فتوفيت عنده ولم تلد منه، وكان نكاحه لها في ربيع الأول، وبنى عليها في جمادى الآخرة من السنة الثالثة من الهجرة، وتوفيت في سنة تسع من الهجرة، وصلى عليها أبوها رسول الله صلى الله عليه وسلم. الاستيعاب (٤/ ١٩٥٢).

(٣) رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد زوج ابنته رقية من عتبة بن أبي لهب، وزوج أختها أم كلثوم عتيبة بن أبي لهب، فلما نزلت سورة {تبت} قال لهما أبوهما أبو لهب، وأمهما أم جميل: (فارقا ابنتي محمد) ففارقاهما قبل أن يدخلا بهما كرامة من الله تعالى لهما، فتزوج عثمان بن عفان رضي الله عنه رقية بمكة، وهاجرت معه إلى الحبشة، وولدت له هناك ولدا، فسماه عبد الله، فبلغ الغلام ست سنين فنقر عينه ديك، فورم وجهه ومرض ومات، ولما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر كانت ابنته رقية مريضة، فتخلف عليها عثمان بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، له بذلك، وكانت قد أصابتها الحصبة، فماتت بها. أسد الغابة (٦/ ١١٣).

وسلم، فأما بناته فأدركن الإسلام، وهاجرن معه، واتبعنه، وآمن به عليه السّلام[٤].

لقد حازت خديجة رضي الله عنها الشرف كلّه؛ فعلى الرغم من أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد بها وهو في الخامسة والعشرين من عمره، وكانت رضي الله عنها في الأربعين، إلا أنّه لم يتزوّج عليها في حياتها، عن

---

(١) فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، سيدة نساء العالمين، ما عدا مريم بنت عمران صلى الله عليهما. أمها خديجة بنت خويلد، كانت أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، زوجها من علي بعد أحد، فولدت له الحسن، والحسين، وأم كلثوم، وزينب، ولم يتزوج علي عليها غيرها حتى ماتت، وانقطع نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا منها، توفيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بستة أشهر، وما رئيت ضاحكة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لحقت بالله عز وجل، ووجدت عليه وجدًا عظيمًا. أسد الغابة (٦/ ٢٢٥).

(٢) القاسم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أكبر أولاده، وبه كان يكنى، مات بمكة في الجاهلية. الاستيعاب (٤/ ١٨١٩).

(٣) عبد الله بن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يقال له: الطيب والطاهر، له ثلاثة أسماء، مات بمكة في الجاهلية، وقيل: بعد الوحي. الاستيعاب (٤/ ١٨١٩).

(٤) سيرة ابن إسحاق، (ص٨١-٨٢).

عائشة رضي الله عنها[1]، قالت: لم يتزوج النبي صلى الله عليه وسلم على خديجة حتى ماتت[2].

ومن كريم منزلتها عند ربّها أنّ أرسل إليها جبريل عليه السلام ليُقرئها السلام، عن أبي هريرة[3] رضي الله عنه، قال: أتى جبريل النبي صلى الله عليه

---

(١) عائشة بنت أبي بكر الصديق أم المؤمنين رضي الله عنها، زوج النبي صلى الله عليه وسلم وأشهر نسائه، تزوجها قبل الهجرة بسنتين، وهي بِكر، وكان عمرها لمَّا تزوجها ست سنين، وبنى بها وهي بنت تسع سنين بالمدينة، روت عن النبي صلى الله عليه وسلم كثيرًا من الأحاديث، ورد في فضلها رضي الله عنها، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام" (متفق عليه). وعن هشام بن عروة، عن أبيه قال: ما رأيت أحدًا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة. وقال أبو بردة بن أبي موسى، عن أبيه: ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها فيه علمًا. وقال الزهري: لو جُمِع علم عائشة إلى علم جميع أمهات المؤمنين، وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل، توفيت سنة (٥٧)، وأمرت أن تدفن بالبقيع. أسد الغابة (٧/ ١٨٦)، الإصابة (٨ / ٢٣٣).

(٢) رواه مسلم (٢٤٣٦).

(٣) أبو هريرة رضي الله عنه، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، اختلفوا في اسمه اختلافًا كثيرًا، قيل عبد الله، وقيل: عبد الرحمن بن صخر الدوسي، وسبب كنيته أنه وجد هرةً فجعلها في كمه، أسلم عام خيبر، وشهدها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم لزمه وواظب عليه رغبة في العلم راضيًا بشبع بطنه، فكانت يده مع يد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يدور معه حيث دار، وكان من أحفظ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن أكثرهم رواية للحديث، قال رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله، إني أسمع منك حديثًا كثيرًا أنساه!! قال: >ابسط رداءك< فبسطته، قال: فغرف بيديه، ثم قال: >ضمه< فضممته، فما نسيت شيئًا بعده. رواه البخاري

وسلم، فقال: (يا رسول الله: هذه خديجة، قد أتت معها إناء فيه إدام، أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربِّها ومني، وبشّرها ببيت في الجنة من قصب[1] لا صخب فيه، ولا نصب)[2].

بقيت خديجة رضي الله عنها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ربع قرن، تحنّ عليه ساعة قلقه، وتؤازره في أحرج أوقاته، وتعينه على إبلاغ رسالته، وتشاركه في مغارم الجهاد المر، وتواسيه بنفسها ومالها. وفي شهر رمضان من السنة العاشرة للنبوة توفيت رضي الله عنها، بعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين، ولها خمس وستون سنة على أشهر الأقوال، ورسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذاك في الخمسين من عمره.

---

(١١٩). قال أبو عثمان النهدي: تضيّفت أبا هريرة سبعًا، فكان هو وامرأته وخادمه يعتقبون الليل أثلاثًا، يصلي هذا، ثم يوقظ هذا، ويصلي هذا، ثم يوقظ هذا. قلت: يا أبا هريرة، كيف تصوم؟ قال: أصوم من أول الشهر ثلاثـًا. توفي سنة (٥٨). الاستيعاب (٢/ ٧٠)، سير أعلام النبلاء (٢/ ٦٠٩).

(١) المراد به قصب اللؤلؤ المجوف كالقصر المنيف، وقيل: قصب من ذهب منظوم بالجوهر... قال الخطابي وغيره: المراد بالبيت هنا القصر. وأما الصخب هو: الصوت المختلط المرتفع، والنصب المشقة والتعب. شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ١٩٩).

(٢) رواه البخاري (٣٨٢٠)، ومسلم (٢٤٣٢).

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غِرت على أحد من نساء النبي صلى الله عليه وسلم، ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة، ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول (إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد)[1]. وفي رواية: فأغضبته يومًا، فقلت: خديجة فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إني قد رُزِقت حبّها)[2].



(1) رواه البخاري (٣٨١٨).

(2) رواه مسلم (٢٤٣٥).

(5)

الصَّادِقُ الأمِين

لم تزل الكعبة المشرفة معظّمة ومقدّسة عند العرب، مِن عهد إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام. ومن هذا التقديس والتعظيم اكتسبت قريشٌ مكانتها الدينية والدنيوية في سائر أنحاء الجزيرة العربية، غير أنّ القصة بدأت قبل ذلك بكثير!

لقد أمر الله تعالى الخليل عليه الصلاة والسلام أن يبني هو وولده بيتًا لله تعالى في مكة، فاستجابا النداء، ورفعا القواعد، وأخذا يسألان الله تعالى أن يجعلهما ثابتَيْن على الإسلام، منقادَيْن لأحكام الله تعالى، ومن جاء بعدهما من ذريتهما، وسألاه سبحانه أنّ يبصّرهما بمعالم عبادته، وأن يتجاوز عن ذنوبهما، وكان مما قالا: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيم} [البقرة:١٢٩]

وما هو إلا أن ارتفع نداء الخليل مؤذّنًا في الناس بالحج حتى غدت مكّة المكرّمة دُرّة المدائن، وأمّ القرى، وأصبحت عامرةً آمنة، يؤمّها المسافرون

في طريقهم، والحجاج والعمّار من كلّ فجّ عميق لأداء نُسُكِهم، وحصل الشرف بخِدمة البيت العتيق، وسكنى مكة، ورعاية وفدها، والقيام بحقها.

مضى زمن طويل نسي فيه أهل مكة آثار الخليل وابنه، واندرست معالم دعوته، بعد أن زالت جرهم[1] عن مكة، ومن بعدها خزاعة[2]. ثمّ جاءت قريش، ووُلد محمّد صلى الله عليه وسلم، وبمولده بدأ فصل جديد لم تعهده شعاب مكة بعد إسماعيل عليه الصلاة والسلام وأمّه هاجر. لقد أخذت الذكريات الأولى تبرق كنجم زاهر في جُنح الظلام؛ حيث نبعت زمزم من جديد على يد عبد المطلب: جدّ هذا الغلام، بعد أن اندرس ذِكرُها، وغارت معالمها، وشاء الله تعالى أن ينشأ محمّد صلى الله عليه وسلم في عبق الذكريات هذا. وكانت نشأته فريدة كذلك؛ فقد كان حنيفاً مسلماً على دين أبيه إبراهيم، صادقاً لم تُعهد عليه كذبة، أميناً يشرُف التجار بمعاملته ويفاخرون بإيداع أموالهم لديه! وحين بلغ الخامسة والثلاثين من عمره

---

(١) جرهم بن قحطان، كانت في الحجاز وكانوا بطونًا وقبائل ومنهم ملوك، وكانوا سكان مكة المشرفة. المنتخب في ذكر نسب قبائل العرب (ص٢٣).

(٢) خزاعة: قبيلة من الأزد، من القحطانية، كانوا بأنحاء مكة، في مرّ الظهران وما يليه، ويعرف اليوم بالجموم. المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص١٠٨).

شاء الله تعالى أن يُظهر فضله، ويجدّد التذكير بشرفه قبل سنوات قلائل من بعثته!

شرعت قريش في تجديد بناء البيت، بعد أن تصدّعت جدرانها على إثر سيل عرم انحدر إلى البيت الحرام. وقام سادة قريش ورجالاتها في أعمال التجديد، ونقل الأحجار، بعد ما هدموا الأنقاض الواهية، ومن هؤلاء الأشراف: محمّد صلى الله عليه وسلم وعمّه العباس[1].

لم يبق سوى رفع الحجر ووضعه في مكانه، وهذا مبلغ الفخر، وشرف الدهر، وبسببه تنازعت قبائل قريش، حتى كادت تقتتل فيما بينها. عن

---

(١) عباس بن عبد المطلب بن هاشم، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، يكنى أبا الفضل، أسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنتين، وقيل بثلاث سنين، كان في الجاهلية رئيسًا في قريش، وإليه كانت عمارة المسجد الحرام والسقاية، أسلم قبل فتح خيبر، وكان يكتم إسلامه، ثم أظهر إسلامه يوم فتح مكة، وشهد حنينًا والطائف وتبوك، كان يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يحب أن يقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن مقامك بمكة خير، كان أنصر الناس لرسول صلى الله عليه وسلم بعد أبى طالب، وحضر معه العقبة يشترط له على الأنصار، وكان على دين قومه يومئذ، كان النبي صلى الله عليه وسلم يكرمه بعد إسلامه ويعظمه ويجله، وكان العباس جواداً مطعمًا وصولاً للرحم ذا رأي حسن ودعوة مرجوة. توفي سنة اثنتين وثلاثين، وصلى عليه عثمان رضي الله عنه ودفن بالبقيع، وهو ابن ثمان وثمانين سنة، وقيل ابن تسع وثمانين. أدرك في الإسلام اثنتين وثلاثين سنة، وفي الجاهلية ستًا وخمسين سنة. الاستيعاب (٢/ ٨١٠).

علي[1] رضي الله عنه قال: لما انهدم البيت بعد جرهم بنته قريش، فلما أرادوا وضع الحجر تشاجروا من يضعه، فاتفقوا على أن يضعه أول من يدخل من هذا الباب، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم من باب بني شيبة، فأمر بثوب فوضع، فأخذ الحَجَر فوضعه في وسطه، وأمر من كل فخذ أن يأخذوا بطائفة من الثوب فيرفعوه، وأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه[2].

سَمَت منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة بعد هذه الحادثة، وعُرف بعقله الحصيف؛ فلم يكن يُلقّب بعدها إلا بالأمين. عن السائب بن عبد الله[3]، أنه كان فيمن بنى الكعبة في الجاهلية، قال: بنينا حتى بلغنا موضع

(١) علي بن أبي طالب بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، يكنى أبا الحسن، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، زوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة، بويع له بالخلافة يوم قتل عثمان رضي الله عنه، لم يتخلف عن مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم مذ قدم المدينة إلا تبوك، كان أحد أوعية العلم، قال عن نفسه: سلوني، فو الله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فو الله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليلٍ نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل. قال الحسن بن علي: لم يترك أبي إلا ثمانمائة درهم أو سبعمائة، فضلت من عطائه، كان يعدها لخادم يشتريها لأهله، وأما تقشفه في لباسه ومطعمه، فأشهر من هذا كله، قتله عبد الرحمن بن ملجم سنة (٤٠). الاستيعاب (١/ ٣٣٥).

(٢) رواه أبو داود الطيالسي في مسنده (١/ ١٠٨)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (١/ ٤٥٨)، وحسن إسناده الألباني في صحيح السيرة (ص٤٥).

(٣) السائب بن عبد الله، أسلم وبايع يوم الفتح. أسد الغابة (٢/ ١٦٥).

الحَجَر، وما يرى الحَجَر أحد، فإذا هو وسط حجارتنا مثل رأس الرجل يكاد يتراءى منه وجه الرجل فقال بطن من قريش: نحن نضعه، وقال: آخرون نحن نضعه، فقالوا: اجعلوا بينكم حكمًا، قالوا: أول رجل يطلع من الفج، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: أتاكم الأمين، فقالوا له، فوضعه في ثوب، ثم دعا بطونهم فأخذوا بنواحيه معه، فوضعه هو صلى الله عليه وسلم[1].



(١) رواه أحمد (٢٤/ ٢٦٢)، وحسن إسناده الألباني في صحيح السيرة (ص٤٥).

(6)

{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}

اقترب موعد التشريف الإلهي، وأخذت سنّ محمد صلى الله عليه وسلم تصعد نحو الأربعين، ومعها بدأت مقدّمات استقبال الوحي بالرؤيا الصالحة، وحبّ الخلوة والانقطاع عن الناس للتعبّد، وذكر الله تعالى، والتفكّر في مخلوقاته.

اعتادت وديان مكة بصخورها وأذاخرها رؤية محمد صلى الله عليه وسلم قادمًا من جوار البيت العتيق، يقطع بضعة أميال من القرية الصّاخبة، صوب جبل مُشرف من جبالها، ليرقى صعوداً صوب ذروته الشمّاء، ويمكث في الغار الساكن هناك، ومعه زاد الليالي الطوال، التي ينقطع بها عن العالمين، متّجهًا بفؤاده المشوق إلى ربّ العالمين.. وحيداً، يتأمّل عظمة الكون، ويصقل قلبه، وينقّي روحه، ويُبصر جريان السحاب، ويُصغي إلى حفيف الرياح وهي تسبّح بحمد ربّها.

وما إن يقضي جواره، ويستبطن الوادي حتى يسمع من بين صخوره وأشجاره من يكسر سكون الصمت، ووحشة المكان، ويُسلّم عليه بصوت

مسموع، يقول: السلام عليك يا رسول الله!! عن جابر بن سمرة[1] رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلّم عليَّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن)[2].

في ذلك الغار المهيب المحجّب كانت نفس كبيرة تطلّ من عليائها على ما تموج به الدنيا من فتن ومغارم، واعتداء وانكسار، ثم تتلوّى حسرة وحيرة؛ لأنها لا تدري من ذلك مخرجًا، ولا تعرف له علاجًا[3]!!

استمر هذا الاستعداد النفسي والروحي قريباً من ثلاث سنوات؛ تهيئةً من الله تعالى لخليله وخاتم أنبيائه صلى الله عليه وسلم لاستقبال الوحي، الذي لا يحلّ إلا في أطهر النفوس، وأزكى الأرواح، وأنقى القلوب.

---

(١) جابر بن سمرة بن جنادة العامري ثم السوائي، أبو عبد الله، ابن أخت سعد بن أبي وقاص، أمه خالدة بنت أبي وقاص، سكن الكوفة وابتنى بها دارًا، وتوفي في أيام بشر بن مروان على الكوفة، وصلى عليه عمرو بن حريث المخزومي، وقيل: توفي سنة ست وستين أيام المختار، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة. أسد الغابة (١/ ٣٠٤).

(٢) رواه مسلم (٢٢٧٧).

(٣) فقه السيرة للغزالي، (ص٩٠).

وفي ليلة من الليالي المباركة، وبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر ربّه في غار حراء[1]، وقد أرخى الليل سدوله، وجثم الظلام على بيوت مكة ووديانها، إذ به صلى الله عليه وسلم يرى نوراً، ويسمع صوتـًا!! لم يكن ذلك سوى أمين وحي السماء جبريل عليه الصلاة والسلام، مرسلٌ من ربّه بالبشارة والتكريم لهذا المتعبّد في الغار، ومعه الكلمات الأولى من وحي الله تعالى للبشرية، بعد قرون من الظلمة والجهل.

فلنترك لعائشة رضي الله عنها الحديث لتخبرنا بما كان من شأن تلك الليلة الشريفة، وما جرى فيها من أحداث. تقول رضي الله عنها: أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي: الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنّث فيه، وهو التعبّد، الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله،

---

(١) حِرَاء: بكسر أوله وفتح ثانيه مع المد، من أشهر جبال مكة بل أشهرها على الاطلاق، يقال له الآن: جبل النور، يقع في شرقي مكة إلى الشمال، فيه الغار الذي كان يتعبد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيه نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق ١-٥]. وكانت النبوة التي عم البشرية نورها ووسعهم عدلها، وشغلتهم بركتها، فلا يحرم منها، إلاّ شقي. معالم مكة التأريخية والأثرية (ص٨٢) بتصرف.

ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزوّد لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه المَلَك، فقال: {اقرأ}. فقال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني، فغطّني[1] حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: {اقرأ}. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: {اقرأ}. فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني، فغطّني الثالثة، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم} [العلق:١-٥]. فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة، فقال: زمِّلوني، زمِّلوني، فزمَّلوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي. فقالت خديجة: كلا والله، لا يُخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرَّحم، وتصدُق الحديث، وتحمِل الكَلّ، وتُكسب المعدوم، وتُقري الضيف، وتعين على نوائب

(١) غطني معناه: عصرني وضمني، وأما الجهد فهو: الغاية والمشقة...وأما أرسلني فمعناه: أطلقني. قال العلماء: والحكمة في الغط؛ شغله من الالتفات والمبالغة في أمره بإحضار قلبه لما يقوله له، وكرره ثلاثًا مبالغة في التنبيه، ففيه أنه ينبغي للمعلم أن يحتاط في تنبيه المتعلم، وأمره بإحضار قلبه. شرح النووي على مسلم (٢/ ١٩٩).

الحق. ثم انطلقت به خديجة إلى ورقة بن نوفل[1]، ابن عم خديجة، فقالت له: يا ابن عمِّ، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي، ما ذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى. فقال ورقة: هذا هو النّاموس[2] الذي أنزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعـًا، يا ليتني أكون حيًّا إذ يُخرجك قومك! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أو مخرجي هم؟)، قال: نعم، لم يأت رجلٌ قطّ بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزّراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي[3].



(١) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشيّ الأسديّ، ابن عم خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، كان قد تنصر في الجاهلية، وهو الذي أخبر خديجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نبي هذه الأمة، لما أخبرته بما رأى النبي صلى الله عليه وسلم لما أوحي إليه، وخبره معه مشهور، وفي آخره: (ولم ينشب ورقة أن توفي)، فهذا ظاهره أنه أقر بنبوته، ولكنه مات قبل أن يدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى الإسلام. الاصابة (٦/ ٤٧٤).

(٢) الناموس: صاحب سر الملك، وهو خاصة الّذي يطلعه على ما يطويه عن غيره من سرائره، وقيل: الناموس: صاحب سر الخير.. وأراد به جبريل عليه السلام، لأن الله تعالى خصه بالوحي والغيب اللذين لا يطلع عليهما غيره. النهاية، مادة: (نمس).

(٣) رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(7)

{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}

أدرك محمد صلى الله عليه وسلم حقّ اليقين أنّه أضحى رسولَ ربّ العالمين، وأنّ الذي جاءه في حراء: أمين الوحي، جبريل عليه الصلاة والسلام. وبعد أيام قلائل من ليلة التشريف والتكريم أنزل إليه خالقه ومولاه مخاطباً: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّل (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً}. [المزَّمل:١-٢]، {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّر (١) قُمْ فَأَنذِر (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّر (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّر (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُر} [المدَّثر:١-٥].

ولّى زمن النوم والراحة إذاً، وبدأت صفحة جديدة من الدعوة، والجهاد، والصبر بعد هذه النداءات الكريمة، لم يكن ينام بعدها صلى الله عليه وسلم إلا قليلاً، فقد شغله همّ الدعوة والبلاغ، وحَمْل الرسالة عن لذيذ الطعام والمنام.

قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعوة أهل بيته، والأقربين من أصحابه، وعلى الفور وجد من يشدّ أزره، ويعينه على تبليغ رسالة ربه؛ فقد آمن به في الأيام القليلة الأولى: زوجته خديجة، وابن عمّه عليّ، وغلامه زيد،

وصاحبه أبو بكر[1]، رضي الله عنهم أجمعين. وبهم اتسعت الدعوة شيئًا فشيئًا، وتقاطر السابقون للإسلام.

اختار النبيّ صلى الله عليه وسلم دار الأرقم[2]، القريبة من الصفا ليجتمع فيها سرًا بالمسلمين الجدد، وهناك كانوا يجتمعون في سكينة وهدوء، ويقضون معه صلى الله عليه وسلم أجمل ساعات العمر، وأهنأ لحظات الوجود.. يتلو

---

(١) عبد الله بن أبي قحافة، واسم أبي قحافة عثمان بن عامر أبو بكر الصديق رضي الله عنهما، كان من رؤساء قريش في الجاهلية، محببًا فيهم، مألفًا لهم، فلما جاء الإسلام كان أول من أسلم من الرجال، وأسلم على يده جماعة لمحبتهم له، وميلهم إليه، حتى إنه أسلم على يده خمسة من العشرة المبشرين بالجنة، دافع عن المستضعفين بمكة بماله وجاه، هاجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحبه في الغار، وآنسه فيه، ووقاه بنفسه، ولم يكن رفيقه من أصحابه في هجرته غيره، لم يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشهد من مشاهده كلها، استخلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمته من بعده، بالتعريض الذي يقوم مقام التصريح، توفي سنة (١٣هـ). الاستيعاب (١/ ٢٩٤)، أسد الغابة (٣/ ٢٠٥).

(٢) أرقم بن أبي الأرقم، واسم أبي الأرقم عبد مناف بن أسد القرشي المخزومي. يكنى أبا عبد الله، كان من المهاجرين الأولين قديم الإسلام. قيل: أنه كان سبع الإسلام سابع سبعة، وقيل: أسلم بعد عشرة أنفس، وفي داره كان النبي صلى الله عليه وسلم مستخفيًا من قريش بمكة؛ يدعو الناس فيها إلى الإسلام في أول الإسلام حتى خرج عنها، وكانت داره بمكة على الصفا، فأسلم فيها جماعة كثيرة، وقد هدمت في التوسعة السعودية، ومكانها اليوم في ساحة لوقوف السيارات، شرق المسعى، توفي الأرقم بن أبي الأرقم سنة خمس وخمسين بالمدينة، وهو ابن بضع وثمانين سنة. الاستيعاب (١/ ١٣١)، معالم مكة التأريخية والأثرية (ص٢٧١).

عليهم فيها آيات ربّهم، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويتذاكرون معه خبر الجنة والنار، وقصص النبيين وأقوامهم، ويسبّحون الله تعالى ويمجّدونه، بعيداً عن مجالس قريش وأنديتها. فإذا تضيّفت الشمس للمغيب رجعوا من عنده وقد ازدادوا إيمانـاً ويقينـاً، ورغبة فيما عند ربّهم، وهمّة في الدعوة والعبادة، ودخل صلى الله عليه وسلم إلى بيته، ناصبـاً قدميه لمناجاة ربه، ساجداً وقائمـاً، يصلّي ويرتّل القرآن، ويسبّح ربّه كثيراً.

سرى خبر الإسلام والمسلمين بمكة كما تسري خيوط الصباح الأولى محمّلة بنسائم البُشرى في دياجير الظلام، وتقاطر الاشراف والعبيد، والرجال والنساء لينضمّوا إلى موكب الإيمان. وطوال ثلاث سنوات كانت آيات الله تعالى تُتلى سراً في بيوتات مكة وشعابها، حتى أذن الله تعالى بطور جديد من الصّدع والجهر، فأمر خليله أن يُنذر عشيرته الأقربين.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين} [الشعراء: ٢١٤]، صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا[1]، فجعل ينادي: (يا بني فهر، يا بني عدي) ـ لبطون قريش ـ حتى اجتمعوا، فجعل

---

(١) الصَّفَا: إذا أطلق بمكة فهو علم على تلك الأكمة الصخرية التي يبدأ منها السعي. معالم مكة التأريخية والأثرية (ص١٥٢).

الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟) قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك إلا صدقـًا، قال: (فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد)، فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَب (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَب}[١]. [المسد١-٢]. وفي رواية: (يا بني عبد مناف إنما مثلي ومثلكم، كمثل رجل بعثه أصحابه طليعة يرتاد، فرأى العدو فخشي العدو أن يسبقوه إليهم، فنادى: يا صباحاه)[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله عز وجل: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين} [الشعراء: ٢١٤]، فقال: (يا معشر قريش اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا صفية[٣] عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت

(١) رواه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٣٥٥).

(٢) رواه ابن منده في الإيمان (٩٥٦)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٣٧٢).

(٣) صفية بنت عبد المطلب بن هاشم، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، شقيقة حمزة، كانت في الجاهلية تحت الحارث بن حرب، ثم هلك عنها، وتزوجها العوام بن خويلد بن أسد، فولدت له الزبير..، وعاشت زمانًا طويلاً. وتوفيت في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة عشرين،

محمد سليني ما شئتِ من مالي لا أغني عنك من الله شيئـًا)[1]. (غير أن لكم رحِمًا سأبُلُّها بِبِلالها)[2].



ولها ثلاث وسبعون سنة، ودفنت بالبقيع. الاستيعاب (٤/ ١٨٧٣).

(١) رواه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦).

(٢) رواه مسلم (٢٠٤)، ومعنى (سأبُلُّها بِبِلالها) أي: أصلكم في الدنيا، ولا أغني عنكم من الله شيئـًا.

(8)

"لقد أُخِفْتُ في الله وما يخاف أحد"

جهر الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الله تعالى، وأعلن ضلال ما ورثه قومه عن آبائهم؛ فانفجرت مكة بمشاعر الغضب، وقرر المشركون ألا يألوا جهدًا في محاربته، وإيذاء الدّاخلين فيه، والتعرّض لهم بألوان النّكال؛ فأخذوا يزلزلون الأرض من تحت أقدامهم، ويستبيحون في الحرم الآمن دماءهم، وأموالهم، فعُذّب منهم من عُذِّب، وقُتل من قُتل.ظلّت الحرب المعلنة على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مستعرة طوال عشرة أعوام، يصحبها سخرية، وتحقير، وتشويه للحقائق؛ بُغية تخذيل المسلمين، وتوهين قواهم، ورمي النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته بتهم هازلة، وشتائم سفيهة، فتارة: كاهن مجنون، وتارة: ساحر كذّاب، وظلّ العذاب الجسدي يُصبّ على المستضعفين بلا رحمة، عن عبد الله بن مسعود[1]

---

(١) عبد الله بن مسعود الهذلي، أسلم قديمًا، يقول رضي الله عنه: (لقد رأيتني سادس ستة، ما على ظهر الأرض مسلم غيرنا)، هاجر الهجرتين إلى الحبشة، والمدينة، وصلى القبلتين، شهد سائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، هو الذي أجهز على أبي جهل، شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، توفي بالمدينة سنة (٣٢)، ودفن بالبقيع. أسد الغابة (٣/ ٣٨١).

رضي الله عنه قال: أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعمّار[1]، وأمُّه سُميّة[2]، وصهيب[3]، وبلال[4]، والمقداد[1]؛

---

(١) عمار بن ياسر بن مالك بن كناية العنسي، ثم المذحجي، يكنى أبا اليقظان، كان عمار وأمه سمية ممن عذب في الله، ثم أعطاهم عمار ما أرادوا بلسانه، واطمأن بالإيمان قلبه، هاجر إلى أرض الحبشة، وصلى القبلتين، وهو من المهاجرين الأولين، ثم شهد بدرًا والمشاهد كلها، وأبلى ببدر بلاء حسنًا، ثم شهد اليمامة، فأبلى فيها أيضا، توفي في صفين سنة سبع وثلاثين. الاستيعاب (٣/ ١١٣٥).

(٢) سمية أم عمار بن ياسر، وهي سمية بنت خباط، كانت من السابقين إلى الإسلام، قيل: كانت سابع سبعة في الإسلام، وكانت ممن عذب في الله وصبرت على الأذى في ذات الله، وكانت من المبايعات الخيرات الفاضلات رحمها الله، روي أن أبا جهل طعنها في قبلها بحربة في يده فقتلها، فهي أول شهيد في الإسلام، وكان قتلها قبل الهجرة، وكانت ممن أظهر الإسلام بمكة في أول الإسلام. أسد الغابة (٦/ ١٥٢).

(٣) صهيب بن سنان بن مالك الرومي، أصله من العرب من النمر بن قاسط، كان أبوه في أرض الموصل، فأغارت الروم على تلك الناحية، فسبت صهيبًا وهو غلام صغير، فنشأ بالروم، فصار ألكن، فابتاعته منهم كلب، ثم قدمت به مكة، فاشتراه عبد الله بن جدعان التيمي، فأعتقه، فأقام معه بمكة، حتى هلك عبد الله بن جدعان، وبعث النبي صلى الله عليه وسلم، فأسلم صهيب ورسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم بعد بضعة وثلاثين رجلاً، وكان من المستضعفين بمكة المعذبين في الله، عز وجل، قدم في آخر الناس في الهجرة إلى المدينة، وشهد بدرًا، وأحدًا، والخندق، والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، مات بالمدينة سنة ثمان وثمانين، وهو ابن ثلاث وسبعين سنة، ودفن بالبقيع. أسد الغابة (٢/ ٤١٨).

(٤) بلال بن رباح المؤذن، مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، اشتراه، وأعتقه لله عز وجل وكان مؤذنًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، من السابقين إلى الإسلام، وممن عذب في الله عز وجل فصبر على العذاب، وكان أبو جهل يبطحه على وجهه في الشمس، ويضع الرحا عليه حتى تصهره

فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمَنَعه الله بعَمِّه أبي طالب، وأمَّا أبو بكر، فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، فألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا، إلا بلال، فإنّه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكة، وهو يقول: أحد، أحد[٢].

وأمّا غيره فقد كانوا يخرجونهم في نصف النهار في حرّ شديد، وفي أرجلهم قيود الحديد، فيجردونهم من الثياب، ويبطحونهم في الرمضاء[٣]، ثم يضعون

الشمس، ويقول: اكفر برب محمد، فيقول: أحد، أحد، شهد بدرًا والمشاهد كلها، فلما مات النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى الشام ومات بدمشق سنة عشرين، وهو ابن ثلاث وستين سنة. الاستيعاب (١/ ١٧٨)، أسد الغابة (١/ ٢٤٣).

(١) المقداد بن عمرو بن ثعلبة، المعروف بالمقداد ابن الأسود، قديم الإسلام من السابقين، من أول من أظهر الإسلام بمكة، هاجر إلى أرض الحبشة، ثم عاد إلى مكة، تأخرت هجرته إلى المدينة، شهد بدرًا، وله فيها مقام مشهور، وشهد أحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومناقبه كثيرة، مات بالمدينة في خلافة عثمان رضي الله عنه، وعمره سبعين سنة. أسد الغابة (٤/ ٤٧٥).

(٢) رواه ابن ماجه (١٥٠)، وأحمد (٦/ ٣٨٢)، وصححه الحاكم (٣/ ٢٨٤) ووافقه الذهبي، وحسَّن إسناده الألباني في صحيح السيرة (ص١٢١).

(٣) أي: الرمل الذي اشتدت حرارته. شرح النووي على مسلم (٥/ ١٢١).

على ظهر كلّ واحد منهم صخرة حتى لا يتحرك، فكان يبقى كذلك حتى لا يعقل.

لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يملك من القوة ما يدفع به عن أصحابه هذا العذاب الأليم، وكلّما أتوه ليستنصر لهم، ويكفّ بأس المشركين عنهم، لا يزيد على ترغيبهم في الصبر، وتذكيرهم بما عند الله تعالى والجنّة، وبحال المؤمنين قبلهم، حتى يفتح الله بينهم وبين قومهم بالحق. عن خباب بن الأرت[1] رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو متوسّد بُردَةً له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟! ألا تدعو الله لنا؟! قال صلى الله عليه وسلم: (كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض، فيُجعل فيه، فيُجاء بالمنشار فيُوضع على رأسه فيُشقُّ باثنتين، وما يصُدُّه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصُدُّه ذلك عن دينه، والله ليُتِمَنّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من

---

(١) خباب بن الأرت بن جندلة التميمي، أسلم قديمــًا، ممن عذب في الله وصبر على دينه، سأله عمر عما لقى من المشركين فقال: يا أمير المؤمنين انظر إلى ظهري فنظر فقال: ما رأيت كاليوم! قال: خباب لقد أوقدت لي نار وسحبت عليها فما أطفأها إلا ودك ظهري، كان فاضلاً من المهاجرين الأولين، نزل الكوفة ومات بها سنة (٣٧)، وقيل: غير ذلك. الاستيعاب (١/ ١٣٠).

صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)[1].

استعرت الاعتداءات أواسط السنة الرابعة من النبوة، ولم تزل تشتد يومًا فيومًا، حتى تفاقمت في أواسط السنة الخامسة، عندها رغّب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بالذهاب إلى الحبشة فرارًا بدينهم، وأخبرهم أنّ بها ملكـًا عادلاً، لا يظلم عنده أحد، فهاجر منهم عدد غفير، أمنوا هناك على أنفسهم، ونعموا فيها بأحسن جوار.

ظنّ المشركون أن بطشهم بالمستضعفين، ونيلهم من غيرهم سوف يصرف الناس عن الاستجابة لداعي الله تعالى، وظنّوا أن وسائل السخرية والتهكّم التي جنحوا إليها ستوقف النبي صلى الله عليه وسلم عن المُضيّ في مهمّته، غير أنّ ذلك كلّه لم يُثنِ عزائم المؤمنين، ولم يفُتّ من عَضُدِهم، بل ظلّوا يتزايدون! عندها تفرغت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم وشرعت في حصاره، والتضييق عليه. عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لقد أُخِفْتُ في الله وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٢).

يؤذى أحد، ولقد أتت علي ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه[1] إبط بلال)[2].



(١) يستره، يعني كان في وقت الضيق رفيقي، وما كان لنا من الطعام إلا شيء قليل بقدر ما يأخذه بلال تحت إبطه. فيض القدير (٥/ ٢٧٨).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٧٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(9)

"حين تقاسمت قريش على الكفر"

نفدت من قريش الحِيل، ولم يُجدِ نفعـًا أساليب الأذى التي أوقعتها بالمسلمين، وساءها موقف بني هاشم وبني المطلب، وحرصهم على حفظ نبي الله صلى الله عليه وسلم والدفاع عنه؛ فاجتمع كفارها في خيف بني كنانة، من وادي المُحَصَّبِ لتدبّر أمرهم، وتحالفوا على بني هاشم وبني المطلب ألا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يكلّموهم، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يُسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق [١].

تم هذا الميثاق الجائر، ولإضفاء القداسة عليه عُلِّقت صحيفته في جوف الكعبة، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب، مؤمنهم وكافرهم ـ إلا أبا لهب ـ

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله: يقال: كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم، ويقال: نضر بن الحارث، والصحيح أنه بَغِيض بن عامر بن هاشم، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فَشُلَّتْ يده. زاد المعاد (٣/ ٣٠).

وحُبسوا في شعب أبي طالب[1]، ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة، واشتدّ عليهم الحصار ثلاث سنوات، قطع عنهم الكفار فيها الطعام فلم يكن يدخل منه شيء، حتى بلغهم الجهد، وأكلوا الأوراق والجلود، وكان يُسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم، يتضاغون من الجوع.

لم ينس رسول صلى الله عليه وسلم هذه السنوات العصيبة، وفي حجة الوداع عمد إلى إظهار عزة المسلمين في المكان الذي تعاقد فيه المشركون على حصرهم، والقضاء عليهم. عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجته، قال: يا رسول الله، أين تنزل غدًا؟ قال: (نحن نازلون غدًا بخيف بني كنانة، المُحَصِّب[2]، حيث قاسمت قريش على الكفر)، وذلك أن بني كنانة حالفت قريشًا على بني هاشم، أن لا يُبايعوهم، ولا يؤووهم. قال الزهري: والخيف: الوادي[3].

---

(١) وهو الذي حصرت قريش بني هاشم فيه عند بدء الدعوة، ويسمى شعب بني هاشم، ويعرف اليوم بشعب علي. المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص١٥٠).

(٢) المُحَصِّب: هو المكان الذي تنتظم فيه الجمرات الثلاث، فهو يُخصّص من منى بالمحصب، ومنى يشمل المحصب وخيف بني كنانة، حيث مسجد الخيف، من منى. (معالم مكة التأريخية والأثرية، ص٢٥٢).

(٣) رواه البخاري (٣٠٥٨)، ومسلم (١٣١٤).

كسب الإسلام في هذه السنوات الثلاث أنصاراً من داخل مكة وخارجها، حيث تحرّك بعض عقلاء مكة لنقض ما عقد سفهاؤها من ظلم وجور في حرم الله تعالى، وقد تصدّر لهذه المهمة النبيلة: هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤى، وكان صاحب مروؤة، يصل بني هاشم في الشعب بالطعام مستخفيًا بالليل، ثم رأى أن يُشرك معه في مهمته خمسة من أشراف قريش، فلما استوثق منهم عقدوا العزم على نقض الصحيفة.

قال ابن كثير: فاتعدوا حطم الحجون[1] ليلاً بأعلى مكة، واجتمعوا هنالك، وأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم. فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حُلّة، فطاف بالبيت سبعـًا، ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تُشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. قال أبو جهل: وكان في ناحية المسجد: والله لا تشق. قال زمعة بن الأسود: أنت

(١) الحجون: هو الجبل الذي يمتد من ريم الحجون اليوم مشرقـًا بشمال، ويكون وجهه الشرقي جبل أذاخر الذي يشرف على ثنية أذاخر... وهي الثنية التي دخل منها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح، فإذاً جبل الحجون هو: ذلك الجبل الذي تقع مقبرة أهل مكة القديمة بسفحه من الجنوب الغربي. معالم مكة التأريخية والأثرية (ص٧٧).

والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كُتبت. قال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقرّ به. قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها. وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك. قال أبو جهل: هذا أمر قد قضي بليل، وتشوور فيه بغير هذا المكان. وأبو طالب جالس في ناحية المسجد. قال ابن هشام: وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي طالب: (يا عم إن الله قد سلّط الأَرَضَة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسمًا هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان). فقال: أربُّك أخبرك بهذا؟ قال: "نعم". قال: فوالله ما يدخل عليك أحد. ثم خرج إلى قريش فقال: يا معشر قريش، إن ابن أخي قد أخبرني بكذا وكذا، فهلم صحيفتكم، فإن كانت كما قال فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عنها، وإن كان كاذبًا دفعت إليكم ابن أخي. فقال القوم: قد رضينا. وتعاقدوا على ذلك. ثم نظروا فإذا هي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فزادهم ذلك شراً[1]. وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من بني هاشم وبني المطلب.

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٦٨).

(10)

" كلمةً أحاجّ لك بها عند الله"

خرج بنو هاشم من شعب أبي طالب سنة عشر من النبوة، وقد أنهكهم الجوع، وأصابهم الضيق والشدة والبلاء، وعاد المسلمون إلى دعوتهم من جديد، غير أن سنوات الحصار، وما اكتنفه طول البقاء في الشعب قد أنهكت جسد أمّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها، ومعها أبو طالب عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما أبو طالب ـ واسمه عبد مناف ـ فقد ألَحَّ به المرض، ولم يلبث أن وافته المنيّة بعد الخروج بزمن يسير[1] في آخر السنة العاشرة. وقد كان أبو طالب يحوط النبي صلى الله عليه وسلم منذ صغره، وإليه كانت كفالته بعد وفاة جده عبد المطلب، وكان يغضب له، وينصره بعد بعثته. وكانت قريش تحترمه، ولا تجرؤ على المساس بالنبي صلى الله عليه وسلم لمكانته بين سادة قريش، فلما أشرف على الموت أتاه النبي صلى الله عليه وسلم يدعوه

---

(١) قيل: توفي في رمضان، وقيل: قبل خديجة رضي الله عنها بثلاثة أيام، وقيل: كان بين وفاته ووفاة خديجة شهر وخمسة أيام. السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص٢٢٢).

للإسلام، طمعاً في أن يموت عليه، واجتهد في ذلك غاية الاجتهاد. عن المسيِّب بن حَزْن[1] رضي الله عنه، قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال: (أي عمِّ قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاجّ لك بها عند الله)، فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: أترغب عن ملّة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه، ويعيدانه بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على ملّة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والله لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك)، {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}. (التوبة:١١٣). وأنزل الله في أبي طالب: {إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِين}. (القصص:٥٦)[2].

---

(١) المسيب بن حزن بن أبي وهب القرشي المخزومي، يكنى أبا سعيد والد سعيد بن المسيب الفقيه، هاجر مع أبيه حزن بن أبي وهب، كان المسيب ممن بايع تحت الشجرة. الاستيعاب (١/ ٤٣٨).

(٢) رواه البخاري (٣٨٨٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه: (قل: لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة)، قال: لولا أن تعيّرني قريش، يقولون: إنّما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك، فأنزل الله الآية [1].

خرج أبو طالب من الدنيا ولم يتلفظ بشهادة التوحيد، ولم يشفع له طول نصرته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحمايته له أن يخرج من النار.

اشتدّ ألم رسول الله صلى الله عليه وسلم على موت عمّه كافراً، واشتد حزنه أكثر أنه مات على الكفر، وخرج من الدنيا على غير لا إله إلا الله. وهو يستحضر أياديه البيضاء طوال أربعين عامـًا! ومع أنّ الله تعالى قد نهاه أن يستغفر له إلا أنّه أخبأ له شفاعة في عمّه جزاء ما قام به من نصرته وإحاطته، عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال صلى الله عليه وسلم:

---

(١) رواه مسلم (٢٥).

(نعم، هو في ضحضاح[1] من نار، ولولا أنا لكان في الدّرك الأسفل من النار)[2].

لم يبرأ ألم فراق النبي صلى الله عليه وسلم لعمه حتى فجأه موت الزوجة الوفية الأمينة: خديجة بنت خويلد رضي الله عنها بعده بمدة يسيرة، فحزن عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم حزنـًا شديداً، وظل يذكرها بعد موتها بخير، ويثني عليها أحسن الثناء. وبموتهما تتابعت عليه صلى الله عليه وسلم الصعاب، وتكالبت الهموم؛ فقد كان عمّه درعـًا حصينة يتقي بها المشركين في الخارج، وكانت خديجة رضي الله عنها سكنـًا يأوي إليه عند الشدائد. ولشدة ما كابد رسول الله صلى الله عليه وسلم من فراقهما في ذلك العام أَطلق عليه المؤرخون عام الحُزن.

نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب، فرأى صلى الله عليه وسلم أن يبحث عن بيئة جديدة، وأن يخرج بالدعوة من مكة إلى غيرها، لعله يجدُ من القبائل والعشائر من

---

(١) الضحضاح: الماء القليل الذي يبلغ الكعبين. النهاية مادة: (طمطم). استعار النار هنا ليسيرها عليه.

(٢) رواه البخاري (٦٢٠٨)، ومسلم (٢٠٩).

يقبل دعوته، ويحميه حتى يبلغ رسالة ربه. ويشاء الله تعالى أن يأسو قلب خليله صلى الله عليه وسلم بما لا يخطر على قلب بشر، فقد أتحفه بمنزلة رفيعة، ورحلة سماوية جليلة، لا نظير لها في تاريخ البشر.



(11)

" مرحباً بالنبي الصالح "

على امتداد الطريق الشامي في تلك الليلة المباركة كانت السماء صافية، ونسائم الصبا تداعب كثبان الرمل. النجوم أخذت تزهر مذ خيَم الظلام، وبدت كأنها على موعد مع مناسبة سعيدة طال انتظارها. ها هي القوافل تلقي بأحمالها لتستريح في عرض الصحراء الباردة، وقريبـاً من نيرانها الموقدة تجمع نفر من الرحالة يصطلون ويتسامرون. كما هي العادة في ليالي الصحراء، كان الظلام حالكـاً، ولم يخطر ببال أحد من الرحالة أن ينظر إلى السماء.

لم تكن تلك الليلة سوى ليلة الإسراء والمعراج، ولم يكن ذلك سوى البراق.

وأمّا النبي الكريم الذي امتطاه تلك الليلة فمحمّد صلى الله عليه وسلم الذي دعاه ربّه إلى السماء ليُظهر شرفه، ويأسوه بعد المواقف العصيبة التي مرّ بها.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان أبو ذر[1] رضي الله عنه، يحدِّث، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (فُرج سقفُ بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل، ففَرَج صدري، ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا فأفرغها في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء ـ زاد في رواية: (ثم أُتيت بدابّة أبيض، يُقال له: البُراق، فوق الحمار، ودون البغل، يقع خطوه عند أقصى طرفه، فحُمِلتُ عليه، ثم انطلقنا حتى أتينا السماء الدنيا)[2] ـ فلما جئنا السماء الدّنيا قال جبريل لخازن السماء الدنيا: افتح، قال: من هذا؟ قال: هذا جبريل، قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معي محمد صلى الله عليه وسلم، قال: فأرسل إليه؟ قال: نعم، ففتح، قال: فلما علونا السماء الدنيا، فإذا رجل عن يمينه أسودة، وعن يساره أسودة، قال: فإذا نظر قِبَل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى،

---

(١) جندب بن جنادة بن سفيان، أبو ذر الغفاري، أسلم والنبي صلى الله عليه وسلم بمكة أول الإسلام، فكان رابع أربعة، وقيل: خامس خمسة، وقد اختلف في اسمه ونسبه اختلافًا كثيرًا، أول من حيا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحية الإسلام، ولما أسلم رجع إلى بلاد قومه، فأقام بها حتى هاجر النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه بالمدينة، بعد ما ذهبت بدر وأحد والخندق، وصحبه إلى أن مات، وبايع النبي صلى الله عليه وسلم على ألا تأخذه في الله لومة لائم، وعلى أن يقول الحق، وإن كان مرًا، وتوفي سنة اثنتين وثلاثين بالربذة. أسد الغابة (١/ ٣٥٤).

(٢) رواه مسلم (١٦٤).

قال: فقال مرحبـًا بالنبي الصالح، والابن الصالح، قال: قلتُ: يا جبريل، من هذا؟ قال: هذا آدم صلى الله عليه وسلم، وهذه الأسودة عن يمينه، وعن شماله نِسَم بنيه، فأهل اليمين أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر قِبل يمينه ضحك، وإذا نظر قِبل شماله بكى، قال: ثم عرج بي جبريل حتى أتى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح، قال: فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا: ففتح، فقال أنس بن مالك رضي الله عنه، فذكر أنه وجد في السماوات: آدم، وإدريس، وعيسى، وموسى، وإبراهيم صلوات الله عليهم أجمعين، ولم يثبت كيف منازلهم، غير أنه ذكر أنه قد وجد آدم صلى الله عليه وسلم في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة، قال: فلما مرّ جبريل ورسول الله صلى الله عليه وسلم بإدريس صلوات الله عليه قال: مرحبـًا بالنبي الصالح، والأخ الصالح، قال: ثم مرّ، فقلت: من هذا؟ فقال: هذا إدريس، قال: ثم مررت بموسى عليه السلام، فقال: مرحبـًا بالنبي الصالح، والأخ الصالح، قال: قلت: من هذا؟ قال: هذا موسى، قال: ثم مررت بعيسى، فقال: مرحبـًا بالنبي الصالح، والأخ الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا عيسى ابن مريم، قال: ثم مررت بإبراهيم عليه السلام، فقال: مرحبًا بالنبي الصالح، والابن الصالح، قال: قلت: من هذا؟ قال: هذا

إبراهيم صلى الله عليه وسلم... ثم عُرج بي حتى ظهرتُ لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام، ففرض الله على أمتي خمسين صلاة، قال: فرجعت بذلك حتى أمرّ بموسى صلى الله عليه وسلم، فقال موسى صلى الله عليه وسلم: ماذا فرض ربك على أمتك؟ قال: قلت: فرض عليهم خمسين صلاة، قال لي موسى عليه السلام: فراجِع ربّك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، قال: فراجعت ربي، فوضع شطرها، قال: فرجعت إلى موسى صلى الله عليه وسلم، فأخبرته قال: راجع ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، قال: فراجعت ربي، فقال: هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي، قال: فرجعت إلى موسى، فقال: راجع ربك، فقلت: قد استحييت من ربي، قال: ثم انطلق بي جبريل حتى نأتي سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي؟ قال: ثم أُدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ[1]، وإذا ترابها المسك)[2].

وقبل أن يُطبق البراق جناحيه، ويهبط بجوار البيت العتيق ليعود محمد صلى الله عليه وسلم إلى فراشه، بعد أن اخترق بروحه وجسده حاجز الزمن في تلك الليلة؛ وعدلت الساعات القليلة الماضية التي قطعها ملايين السنيين

---

(١) مواضع مرتفعة كحبال الرمل. النهاية مادة (حبل).

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣).

الضوئية بمقياس البشر، رأى خلالها من المشاهد والعوالم مالا قدرة للعقل البشري على إدراكه.



(12)

"من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي، وله الجنة؟"

لم يتوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن دعوته بعد وفاة عمّه أبي طالب، وزوجه خديجة رضي الله عنها، ولكنه أخذ يبحث عن بيئة أخرى يأوي إليها، بعدما اشتدّ عليه أذى قريش، ونال منه سفهاؤها ما لم ينالوا في حياة أبي طالب. عن عروة بن الزبير عن عبد الله بن جعفر قال: لما مات أبو طالب عرض لرسول الله سفيه من سفهاء قريش فألقى عليه ترابا فرجع إلى بيته، فأتت امرأة من بناته تمسح عن وجهه التراب وتبكي، فجعل يقول: "أي بنية لا تبكي فإنّ الله عز وجل مانع أباك"، وكان يقول: "ما بين ذلك ما نالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب"[(١)].

استكمل صلى الله عليه وسلم عرض الإسلام على القبائل في موسم الحج، وعقد العزم على الذهاب للطائف لعلها تنصره وتؤويه حتى يبلّغ دعوة ربّه، فخرج صلى الله عليه وسلم من مكة وقصد سادة ثقيف وأشرافها: عبد ياليل ومسعود، وحبيب، بنو عمرو بن عمير، فجلس إليهم وحدثهم، ودعاهم

---

(١) دلائل النبوة، للبيهقي (٢/ ٣٥٠).

إلى عبادة ربّهم، غير أنهم سخروا به، وردّوا عليه ردّاً منكراً، وأغروا به سفهاءهم وصبيانهم، يشتمونه، ويرمونه بالحجارة حتى أدموا قدميه صلى الله عليه وسلم.

وبينا هو في طريق عودته أسيفـًا حزينـًا لإعراض أهل الطائف عن دعوته، وقُبح رّدهم عليه، أرسل الله تعالى له في وادي نخلة[1] نفراً من الجنّ، استمعوا لقرائته وآمنوا برسالته، ثم جبر كسره بإرسال مَلكين عظيمين من ملائكة السماء! عن عائشة رضي الله عنها، قالت: للنبي صلى الله عليه وسلم: هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أُحُد[2]؟! قال: (لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال[3]، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على

---

(١) هي: نخلة اليمانية، عند بلدة السيل الكبير فتصب فيها جميع مياه هدأة الطائف، وفيها عينا الزيمة وسولة وهما عينان جاريتان، ويأخذها طريق الطائف من مكة، وهو المعروف بطريق اليمانية، ذلك أن العامة لا تعرف نخلة إنما تسميها اليمانية. معالم مكة التأريخية والأثرية (ص٣٠٠).

(٢) غزوة أحد وقعت في السنة الثالثة للهجرة في شوال، وفي هذه الغزوة، كسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم، وشج رأسه، فجعل يسلت الدم عنه ويقول: "كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله" (رواه مسلم، ١٧٩١).

(٣) خرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الطائف؛ علَّه يجد من ينصره ويحميه لتبليغ دين

وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب[1] فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلّتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردّوا عليك، وقد بعث إليك مَلَكَ الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملكُ الجبال فسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئتَ أن أُطبِق عليهم الأخشبين[2]؟. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا)[3].

الله، فعمد إلى ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف، وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفي، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله، وإلى نصرة الإسلام. لكنه قوبل بالصد والإعراض، ولمّا أراد الخروج من الطائف تبعه سفهاؤهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، وجعلوا يرمونه بالحجارة وبكلمات من السفه، ورجموا عراقيبه، حتى اختضب نعلاه بالدماء. الرحيق المختوم (ص١١٤).

(١) قرن الثعالب هو قرن المنازل: ميقات أهل نجد الآن، على يوم وليلة من مكة، وأصله الجبل الصغير ينقطع من الجبل الكبير. إكمال المعلم (٦/ ٨٧).

(٢) الأخشبين: جبل أبو قُبَيس وقُعَيْقعان، أما أبو قبيس، فهو الجبل المشرف إشرافًا مباشراً على المسجد الحرام من مطلع الشمس. وأما قعيقعان: فهو الجبل الذي يشرف على المسجد الحرام من الشمال الغربي، يمتد شمالاً إلى الحجون، وغربـًا إلى بئر طُوَى، وجنوبـًا إلى حارة الباب والشُّبيكة، ومن أقسامه اليوم: جبل هِنْدي وجبل العَبَّادي وجبل السُّلَيمانية وجبل الفَلْق. معالم مكة التأريخية والأثرية (ص١٢-١٣، ٢٠).

(٣) رواه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة، وأخذ يتّبع منازل القبائل في موسم الحج يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ، ويطلب منهم أن ينصروه حتى يبلّغ رسالة ربّه، فلم يجبه على ذلك أحد للفضل الذي اختبأه الله تعالى للأنصار؛ ففي السنة الحادية عشرة من النبوة سمعه ستة نفر من أهل يثرب في موسم الحج فأسلموا، ووعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بإبلاغ رسالته في قومهم.

فلما جاء موسم الحج التالي سنة اثنتي عشرة من النبوة، أقبل اثنا عشر رجلًا، فيهم خمسة من الستة الذين كانوا قد التقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم في العام السابق، وبايعوه بيعة[1] النساء.

وحالما انتهى الموسم بعث النبي صلى الله عليه وسلم معهم مصعب بن عمير[2] رضي الله عنه يعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، ويقرأ عليهم القرآن، وبقدومه انتشر الإسلام في جميع أرجاء المدينة.

---

(١) كانت بيعة العقبة بمكة على ألا يشركوا بالله شيئًا، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، على ما ذكر الله في آخر سورة الممتحنة، ولم يفرض في هذه البيعة حرب، إنما بايعوه بيعة النساء، أي وفق بيعتهن التي نزلت عند فتح مكة. شرح البخاري لابن بطال (٥/ ١٣١).

(٢) مصعب بن عمير بن هاشم القرشي العبدري، يكنى أبا عبد الله، من جلة الصحابة وفضلائهم،

فلما كان موسم الحج القادم في السنة الثالثة عشرة من النبوة أقبل لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفسًا من المسلمين من أهل يثرب، وواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أوسط أيام التشريق عند العقبة في منى. عن جابر[1] بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: مكث رسول الله صلى الله عليه

هاجر إلى أرض الحبشة في أول من هاجر إليها، بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قبل الهجرة بعد العقبة الثانية يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين، وكان يدعى القارئ والمقرئ، كان مصعب فتى مكة شبابًا وجمالاً وتيهًا، وكان أبواه يحبانه، وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب، وكان أعطر أهل مكة، يلبس الحضرمي من النعال، قال خباب: قتل مصعب يوم أحد، ولم يكن له إلا نمرة، كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطينا رجليه خرج رأسه، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: غطوا بها رأسه، واجعلوا على رجليه من الإذخر. ولم يختلف أهل السير أن راية رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ويوم أحد كانت بيد مصعب بن عمير. الاستيعاب (٤/ ١٤٧٣).

(١) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري السلمي، شهد العقبة الثانية مع أبيه وهو صبي، غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع عشرة غزوة، لم يشهد بدرًا، ولا أحدًا، وكان من المكثرين في الحديث الحافظين للسنن، قال هشام بن عروة: كان لجابر بن عبد الله حلقة في المسجد ـ يعني النبويّ ـ يؤخذ عنه العلم. وقال عاصم بن عمر بن قتادة: جاءنا جابر بن عبد الله وقد أصيب بصره وقد مسّ رأسه ولحيته بشيء من صفرة، وكان آخر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم موتًا بالمدينة، توفي سنة (٧٤)، وعمره أربعًا وتسعين سنة. الاصابة (١/ ٥٤٦).

وسلم بمكة عشر سنين، يتبع الناس في منازلهم بعكاظ[1] ومجنة[2]، وفي المواسم بمنى، يقول: (من يؤويني؟ من ينصرني حتى أبلِّغ رسالة ربي، وله الجنة؟)، حتى إن الرجل ليخرج من اليمن، أو من مصر، فيأتيه قومه، فيقولون: احذر غلام قريش، لا يفتنك، ويمشي بين رجالهم، وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله له من يثرب، فآويناه، وصدّقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به، ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين، يظهرون الإسلام، ثم ائتمروا جميعًا، فقلنا: حتى متى نترك رسول الله صلى الله عليه وسلم يطرد في جبال مكة ويخاف؟ فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة[3]، فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين حتى

---

(١) عكاظ من أشهر أسواق العرب، يوجد في الجهة الشرقية الشمالية من بلدة الحوية اليوم، يقع شمال شرقي الطائف. (معالم مكة التأريخية والأثرية، ص٢٤٥)، (معجم الْمَعَالِمِ الجغرافية في السيرة النبوية، ص٢١٥).

(٢) مَجَنَّة: سوق للعرب في الجاهلية، يعرف اليوم ببلدة بحرة الواقعة بين مكة وجُدّة، في منتصف المسافة تقريباً. انظر: معالم مكة التأريخية والأثرية (ص٢٤٥)، معجم الْمَعَالِمِ الجغرافية في السيرة النبوية (ص٢١٥).

(٣) العقبة التي بويع فيها النبي صلى الله عليه وسلم، وهي عقبة منى، ومنها ترمى جمرة العقبة، وهي مدخل منى من الغرب وحدّه الغربي. المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص١٩٤).

توافينا، فقلنا: يا رسول الله، علام نبايعك، قال: (تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله، لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني، فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم، وأزواجكم، وأبناءكم، ولكم الجنة)، قال: فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ بيده أسعد[1] بن زرارة، وهو من أصغرهم، فقال: رويدًا يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك، وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبينة، فبينوا ذلك، فهو أعذر لكم عند الله، قالوا: أمط عنا يا أسعد، فو الله لا ندع هذه البيعة أبدًا، ولا نسلبها أبدًا، قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا، وشرط، ويعطينا على ذلك الجنة[2].

---

(١) أسعد بن زرارة الأنصاري الخزرجي النجاري، ويقال له أسعد الخير وكنيته: أبو أمامة، من أول الأنصار إسلامًا وكان عقبيًا شهد العقبة الأولى والثانية والثالثة وبايع فيها، مات في السنة الأولى من الهجرة في شوال قبل بدر، لأن بدرًا كانت في رمضان سنة اثنتين، وكان موته بمرض يقال له الذبحة، فكواه النبي صلى الله عليه وسلم بيده، ومات رضي الله عنه. أسد الغابة (١/ ٨٦).

(٢) رواه أحمد (٢٢/ ٣٤٦-٣٤٨)، والحاكم (٢/ ٦٢٥) وصححه ووفقه الذهبي.

(13)

{لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}

بدأت طلائع المهاجرين بالتحرك صوب المدينة، يحدوهم اليقين، ويسبقهم الشوق والأمل، فمنهم من هاجر بنفسه وحال المشركون بينه وبين زوجه وولده كما فعل أبو سلمة رضي الله عنه ومنهم من حيل بينه وبين ماله كما حدث مع صُهَيْب بن سِنان الرومي رضي الله عنه، وأمّا بقية المسلمين فخرجوا أرسالًا إلى المدينة، يتبع بعضهم بعضًا.

وبعد شهرين وبضعة أيام من بيعة العقبة الكبرى لم يبق بمكة من المسلمين إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، وعلي، رضي الله عنهما، أقاما بأمره لهما، وبقي معهم نفر قليل احتبسهم المشركون كرهًا، وقد أعد رسول الله صلى الله عليه وسلم جهازه ينتظر متى يؤمر بالخروج، وأعد أبو بكر جهازه رجاء شرف الصحبة.

وتروي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ما جرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر في حديث الهجرة فتقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إني أريت دار هجرتكم، ذات نخل بين لابتين)، وهما الحرتان،

فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر قِبل المدينة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (على رِسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي)، فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: (نعم)، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر وهو الخبط، أربعة أشهر. فبينما نحن يومًا جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعًا[1]، في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، قالت: فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن، فأذن له فدخل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: (أخرج من عندك). فقال أبو بكر: إنما هم أهلك، بأبي أنت يا رسول الله، قال: (فإني قد أُذِن لي في الخروج). فقال أبو بكر: الصحابة بأبي أنت يا رسول الله؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نعم). قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بالثمن). قالت عائشة:

---

(١) هو تغطية الرأس وأكثر الوجه برداء أو غيره. فتح الباري (١٠/ ٢٧٤).

فجهزناهما أحثّ[1] الجهاز، وصنعنا لهما سفرة[2] في جراب[3]، فقطعت أسماء[4] بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاقين قالت: ثم لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر بغار في جبل ثور[5]، فكمنا فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبد الله بن أبي

(١) أي: أعجله. فتح الباري (١/ ١٠٢).

(٢) أي: طعامًا، لما هاجرا. النهاية مادة: (سفر)، وأصل السفرة في اللغة: الزاد الذي يصنع للمسافر. فتح الباري (٧/ ٢٣٦).

(٣) وعاء من جلد. شرح النووي (١٢/ ١٠٢).

(٤) أسماء بنت أبي بكر الصديق، كانت تحت الزبير بن العوام، وكان إسلامها قديمًا بمكة، وهاجرت إلى المدينة وهي حامل بعبد الله بن الزبير، فوضعته بقباء، وكانت تسمى ذات النطاقين، قالت: صنعت سفرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أبي بكر، حين أراد أن يهاجر إلى المدينة، قالت: فلم نجد لسفرته، ولا لسقائه ما نربطهما به، فقلت لأبي بكر: والله ما أجد شيئًا أربط به إلا نطاقي، قال: فشقيه باثنين، فاربطيه: بواحد السقاء، وبالآخر السفرة، ففعلت، فلذلك سميت ذات النطاقين. رواه البخاري (٢٩٧٩)، ومسلم (٢٥٤٥)، توفيت بمكة سنة ثلاث وسبعين بعد قتل ابنها عبد الله بن الزبير بيسير. (الاستيعاب، ٤/ ١٧٨١).

(٥) جبل جنوب مكة عال..، يرى من جميع نواحيها المرتفعة، به غار ثور الذي اختبأ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أول مهاجرته، وله طريق اليوم يخرج من رأس أجياد ثم على خم ثم بطحاء قريش، ولا تزيد المسافة على خمسة أكيال، وقد وصل عمران مكة إلى سفوحه الشمالية. (معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ص٧٢).

بكر، وهو غلام شاب، ثقف لقن[1]، فيُدلج[2] من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمراً، يكتادان[3] به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر[4] بن فهيرة، مولى أبي بكر منحة[5] من غنم، فيريحها[6] عليهما حين تذهب ساعة من العشاء،

---

(١) أي: ذو فطنة وذكاء. النهاية مادة: (ثقف).

(٢) الدال واللام والجيم أصل يدل على سير ومجيء وذهاب. ولعل ذلك أكثر ما كان في خفية. فالدلج: سير الليل. ويقال: أدلج القوم، إذا قطعوا الليل كله سيرا; فإن خرجوا من آخر الليل فقد ادَّلجوا، بتشديد الدال. مقايس اللغة مادة (دلج).

(٣) أي: يطلب لهما فيه المكروه، وهو من الكيد. فتح الباري (٧/ ٢٣٧).

(٤) عامر بن فهيرة، مولى أبي بكر الصديق، يكنى أبا عمرو، من السابقين إلى الإسلام، أسلم قبل أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم، أسلم وهو مملوك، وكان حسن الإسلام، وعذب في الله، فاشتراه أبو بكر، فأعتقه، ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار بثور مهاجرين، أمر أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة أن يروح بغنم أبي بكر عليهما، وكان يرعاها، فكان عامر يرعى في رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر فاحتلباها، وإذا غدا عبد الله بن أبي بكر من عندهما اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفي عليه، فلما سار النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر من الغار هاجر معهما، فأردفه أبو بكر خلفه، شهد بدرًا وأحدًا، وقتل يوم بئر معونة، سنة أربع من الهجرة، وهو ابن أربعين سنة. أسد الغابة (٣/ ٣٢).

(٥) أي: غنم فيها لبن. النهاية مادة: (منح).

(٦) كان يروح عليهما الغنم كل ليلة، فيحلبان، ثم تسرح بكرة، فيصبح في رعيان الناس، فلا يفطن له. فتح الباري (٧/ ٢٣٧).

فيبيتان في رِسْلٍ[1] ـ وهو لبن منحتهما ورَضِيفهما[2] ـ حتى ينعق[3] بها عامر بن فهيرة بغلس[4]، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلاً من بني الديل[5]، وهو من بني عبد بن عدي، هاديًا خرِّيتًا[6] ـ والخرِّيت الماهر بالهداية ـ قد غَمَس[7] حِلفًا في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، براحلتيهما صُبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة، والدليل، فأخذ بهم طريق السواحل[8].

---

(١) رِسْل بكسر الراء بعدها مهملة ساكنة، اللبن الطري. فتح الباري (٧/ ٢٣٧).

(٢) أي: اللبن المرضوف، أي: التي وضعت فيه الحجارة المحماة بالشمس أو النار لينعقد وتزول رخاوته. فتح الباري (٧/ ٢٣٧).

(٣) أي: يصيح بغنمه والنعيق صوت الراعي إذا زجر الغنم. فتح الباري (٧/ ٢٣٧).

(٤) الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح. النهاية، مادة: (غلس).

(٥) اسمه: عبد الله بن أُرْقُد الدَّيْلي، وقيل: أريقط. وكان مشركـًا. السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص٢٦٧).

(٦) الخريت الماهر بالهداية، هو مدرج في الخبر من كلام الزهري، وسمي خريتًا لأنه يهدي بمثل خرت الإبرة، أي: ثقبها، وقيل: لأنه يهتدي لأخرات المفازة وهي طرقها الخفية. فتح الباري (٧/ ٢٣٨).

(٧) أي: كان حليفًا، وكانوا إذا تحالفوا غمسوا أيمانهم في دم أو خلوق، أو في شيء يكون فيه تلويث، فيكون ذلك تأكيدًا للحلف. فتح الباري (٧/ ٢٣٨).

(٨) رواه البخاري، (٣٩٠٥).

وقد أخبر أبو بكر رضي الله عنه عمّا حدث لهما بعد ذلك فقال: قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار فرأيت آثار المشركين، قلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا، قال: (ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!)[1].

وعن عازب[2] بن الحارث الأنصاري رضي الله عنه قال: قلت لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: حدثنا، كيف صنعت أنت ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجتما من مكة، والمشركون يطلبونكم؟ قال: ارتحلنا من مكة، فأحيينا، أو: سرينا ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا وقام قائم الظهيرة، فرميت ببصري هل أرى من ظل فآوي إليه، فإذا صخرة أتيتها فنظرت بقية ظل لها فسويته، ثم فرشت للنبي صلى الله عليه وسلم فيه، ثم قلت له: اضطجع يا نبي الله، فاضطجع النبي صلى الله عليه وسلم، ثم انطلقت أنظر ما حولي هل أرى من الطلب أحدًا، فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة يريد منها الذي أردنا، فسألته فقلت له: لمن أنت يا غلام، قال لرجل من قريش، سماه فعرفته، فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم، قلت: فهل أنت حالب

---

(١) رواه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١).

(٢) عازب بن الحارث بن عدي الأنصاري الأوسي والد البراء رضي الله عنهما. الاصابة (١/ ٢٧٨).

لنا؟[1] قال: نعم، فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، ثم أمرته أن ينفض ضرعها من الغبار، ثم أمرته أن ينفض كفيه، فقال: هكذا، ضرب إحدى كفيه بالأخرى[2]، فحلب لي كُثبة[3] من لبن، وقد جعلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم إداوة[4] على فمها خرقة، فصببت على اللبن حتى برد أسفله، فانطلقت به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فوافقته قد استيقظ، فقلت: اشرب يا رسول الله، فشرب حتى رضيت، ثم قلت: قد آن الرحيل يا رسول الله؟ قال:

---

(١) قال ابن بطال: سألت بعض شيوخي عن وجه استجازة أبى بكر الصديق لشرب اللبن من ذلك الراعي، فقال لي: يحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد كان أُذن له في الحرب، وكانت أموال المشركين له حلالاً. فعرضته على المهلب بن أبى صفرة فقال لي: ليس هذا بشيء، لأن الحرب والجهاد إنما فرض بالمدينة، وإنما شرب رسول الله وأبو بكر ذلك اللبن بالمعنى المتعارف عندهم في ذلك الزمن من المكارمات، وبما استفهم به أبو بكر الراعي من أنه حالب أو غير حالب، ولو كان بمعنى الغنيمة ما استفهمه، ولحلب ما أراد الراعي أو كره، ولساق الغنم غنيمة..، والدليل على صحة هذا التأويل: أن شرب اللبن كان على وجه العادة عندهم. شرح صحيح البخاري لابن بطال (٦/ ٥٦٦).

(٢) قال ابن بطال: في حديث أبى بكر من الأدب والتنظف، ما صنعه أبو بكر من أمره بنفض يدي الراعي، ونفض الضرع، وخدمته للنبي - عليه السلام - وإلطافه به ما يجب أن يتمثل به في كل عالم وإمام عادل. شرح صحيح البخاري لابن بطال (٦/ ٥٦٧).

(٣) الكثبة: كل قليل جمعته من طعام أو لبن أو غير ذلك. النهاية، مادة: (كثب).

(٤) إداوة بكسر الهمزة إناء صغير من جلد. فتح الباري (١/ ٢٥١).

(بلى). فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة[1] بن مالك بن جعشم على فرس له، فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله، فقال: {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا}[2]. [التوبة: ٤٠].

عن عروة بن الزبير، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقي الزبير[3] في ركب من المسلمين، كانوا تجاراً قافلين[4] من الشام، فكسا الزبير رسول الله صلى

---

(١) سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي الكناني، يكنى أبا سفيان كان ينزل قديداً، يُعد في أهل المدينة، ويقال: إنه سكن مكة، روى البخاريّ قصته في إدراكه النّبي صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة، ودعا النبي صلى الله عليه وسلم حتى ساخت رجلا فرسه، ثم إنه طلب منه الخلاص، وألّا يدل عليه، ففعل، وكتب له أمانًا، وأسلم يوم الفتح. توفي سنة (٢٤هـ). الاستيعاب (١/ ١٧٤).

(٢) رواه البخاري (٣٦٥٢).

(٣) الزبير بن العوام بن خويلد القرشي الأسدي، يكنى أبا عبد الله، أمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو ابن عمة رسول الله، وابن أخي خديجة بنت خويلد زوج النبي صلى الله عليه وسلم، كان إسلامه بعد أبي بكر بيسير، كان رابعًا أو خامسًا في الإسلام، هاجر إلى الحبشة وإلى المدينة، ندب النبي صلى الله عليه وسلم الناس يوم الخندق فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير، ثلاثا، فقال: (لكل نبي حواري وحواري الزبير) رواه البخاري (٧٢٦١)، ومسلم (٢٤١٥)، أول من سل سيفًا في الله عز وجل، شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، كان له ألف مملوك، يؤدون إليه الخراج، فما يدخل إلى بيته منها درهمًا واحدًا، كان يتصدق بذلك كله، قتله ابن جرموز سنة ست وثلاثين بوادي السباع حينما انصرف من موقعة الجمل. أسد الغابة (٢/ ٩٧).

(٤) الرجوع من السفر. مقاييس اللغة مادة: (قفل).

الله عليه وسلم وأبا بكر ثياب بياض، وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة، فكانوا يغدون[1] كل غداة إلى الحرة[2]، فينتظرونه حتى يردهم حرّ الظهيرة، فانقلبوا يومًا بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم، أوفى[3] رجل من يهود على أطم[4] من آطامهم، لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مبيضين[5] يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب، هذا جَدُّكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين، حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتًا، فطفق من جاء من الأنصار - ممن لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم - يحيي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل أبو بكر

---

(١) الغدو، هو السير أول النهار. النهاية مادة: (غدا).

(٢) الحرة أرض ذات حجارة سود نخرة، كأنها أحرقت بالنار. معجم البلدان (٢/ ٢٤٥).

(٣) أي: أشرف واطلع. النهاية مادة: (وفا).

(٤) يعني: أبنيتها المرتفعة كالحصون. النهاية مادة: (أطم).

(٥) بتشديد الياء وكسرها، أي لابسين ثيابا بيضا. النهاية مادة: (بيض).

حتى ظلَّل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك[1].

وصل الله وسلم على نبينا محمد.



---

(١) رواه البخاري، (٣٩٠٦).

كتب مطبوعة للمؤلف

١. الشيشان، صقور الجبال البيضاء.

٢. أوراق الحب العامر.

٣. قراءات دعوية في كتب الإدارة المعرّبة الغربية. (تربية العظماء ١).

٤. **السراج المنير. (بين يديك)**

٥. المدينة المحاصرة. (تربية العظماء ٢).

٦. أحقـًا هذه الجنة؟

٧. زاد الجندي المسلم.

٨. مقامات الإيمان.

٩. الرحلة الأخيرة.

١٠. العقوبات والآيات والسنن (١١١ قاعدة لفهمها والتعامل معها).



محمد رسول الله

هذا الكتاب:

على الرغم مما زخرت به المكتبة الإسلامية في السيرة العطرة، إلا أنّ الحاجة لا تزال ملحّة لتأليف مبحث لطيف في **(السيرة المكيّة)** لخير البريّة صلى الله عليه وسلم، يجمع بين اختيار الروايات التاريخية وعرضها بلغة أدبية، مع وقفات تحليلية، تستنبط الدروس والعِبر، وتعريف بالتراجم والأماكن وتحرير لمعاني المفردات الغريبة، والألفاظ المبهمة، وذلك ما أعان عليه جلّ جلاله في هذا المختصر النافع.

الطبعة الأولى 1444 - 2022

